صالح للاستعمال

القلبي



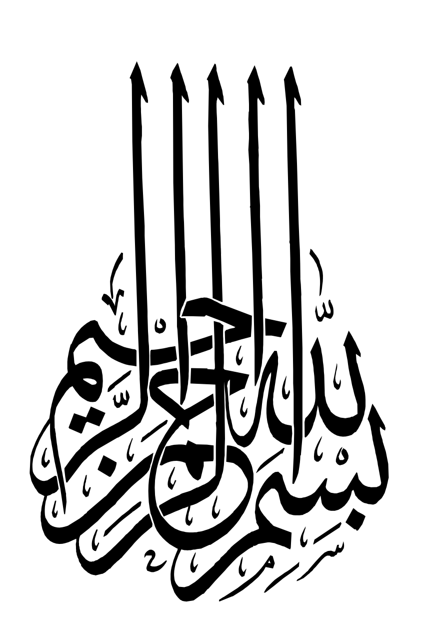
رقم الإيداع

\

صالح للاستعمال
القلبي

بقلم

د. محمد علي يوسف


بسم الله الرحمن الرحيم

صالح للاستعمال القلبي
(مقدمة الكتاب)

لم تكن تلك الأعوام الثلاثة الأخيرة سهلة مطلقا

أعوام اكتظت بالأحداث

بالمتغيرات

بآمال وآلام

أفراح وأحزان

بشهوات وشبهات

تراشقات ونفاقات

ثناءات وإهانات

هتافات وصرخات

ضحكات...

ودمعات

مع كل الأحداث التي ذخرت بها تلك الأعوام

انصرفت أقلام وألسنة للتعليق اليومي على الحدث أو الموقف أو الأزمة التي ربما لم يخل منها يوم من أيام مصر ما بعد يناير ٢٠١١

لقد كانت أعواما في غاية الثراء حقا

وإن الثراء الواقعي والفكري بحلوه ومره يؤثر في الناس وربما يؤثر بعضهم فيه بشكل أو بآخر

ومن أصحاب التأثير من منحهم الله قلما وأتاح لهم منابر يؤثرون من خلالها في قطاعات من الخلق تتفاوت في الحجم والطبيعة

ولقد من الله علي بقلم أتيح لي من خلاله أن أدلو بدلو متواضع في خضم تلك الأعوام الحافلة وأن أترجم ما يجيش في صدري من مشاعر وفي عقلي من أفكار إلى كلمات يسر الله لها العديد من المنابر الإعلامية والثقافية لتنشر بين الناس

بالطبع لم يكن قلمي بمنأى عن التعليق الآني والتأثر اللحظي بتلك الأحداث المتسارعة والمحمومة

لكنني انتبهت مبكرا إلى أن الانسياق الكامل للنظر اليومي والتحليل المباشر يشبه إلى حد كبير أحيانا سلوك المعلق الكروي الذي تعد مهنته التقاط كل شاردة وواردة في مباراة كرة القدم ليعلق عليها ويصنع من حبتها قبة وكلما ازدادت درجة إثاريته وحدة حماسته التي تحول تمريرة عادية أو فرصة ضائعة إلى صراخ يملأ الشاشات ويلهب مشاعر الجماهير كلما علا ثمنه وتقدم موقعه بين معشر المعلقين وتعالى الطلب عليه

لكن في النهاية ستنتهي المباراة وستهدأ حماسة الجماهير ولن يتبقى في

الأذهان شيء من حماسة المعلق وثنائه على كل تسديدة أو تمريرة

لن يتبقى في الأذهان إلا هدف جميل أحرزه لاعب (حريف) أو نتيجة حاسمة جاءت ببطولة كبرى إلى الفريق الفائز

هذا في دنيا الكرة

وفي الواقع أيضا

كم من مقالات كتبت وكم من تصريحات أطلقت وكم من كلمات اشتهرت وملأت الدنيا ضجيجا وعراكا على إثرها ثم هدأت الأمور ونسي الخلق ما حدث ومرت العاصفة إلى حين تتفجر بعده من جديد ويقع الناس معها في نفس الأخطاء ونفس ردود الأفعال التي كانت في العاصفة السابقة وهكذا دواليك

وفجأة ودون أن تشعر تجد نفسك محاصرا داخل أسوار المحدودية الآنية وتنظر من حولك فلا ترى إلا جدران صندوق صرت أنت وقلمك حبيسا بداخله

صندوق معتم به فتحات لا ترى من خلالها إلا ما يراد لك أن تراه ولا تخرج منه إلا نتاجا قصير الصلاحية رغم إثاريته إلا انه يفقد طعمه وصلاحيته للاستعمال الآدمي والفكري بمجرد حدوث عاصفة جديدة

لذلك وبعد مرور بضعة أشهر من ثورة يناير وملاحظتي لذلك النسق المتكرر والدوائر المغلقة التي ظللنا ندور فيها والصناديق المعتمة والأسوار

الضيقة التي بنيت حولنا قررت أن لا يحاصر قلمي خلف تلك الأسوار أو أن يحبس في تلك الصناديق

قررت أن أحاول محاولات ولو متواضعة للخروج من صناديق اليومية أو اللحظية الآنية إلى آفاق أكثر رحابة أستقي بها من خلال ما يحدث فوائد عامة وقواعد فكرية مطلقة تكون بعد أن تضع المعمعة أوزارها عونا لمن أراد أن ينتفع بتلك الأعوام الثرية وما مرت به الأمة فيها من منحنيات

لأجل ذلك غلبت الطبيعة التأملية والتنظيرية على كتاباتي الدورية في الصحف والمجلات الورقية والإلكترونية خلال الجزء الأكبر من تلك الأعوام الثلاثة المنصرمة وحرصت على عدم الانسياق المستمر لدوامة التعليق اللحظي والموسمي

وبعد انقضاء تلك الأعوام أعدت النظر في كل ما كتبت فوجدت ما يزيد بقليل عن مائة مقالة متفاوتة في الطول رأيت أنها صالحة للاستعمال الفكري والاستعمال القلبي

ستجد بين يديك في هذا الكتاب مقالات يغلب عليها طابع يخاطب القلب ويحاول أن يزيل عنه ما لحق به من ران الواقع

ويخاطب النفس ويعالج بعض آفاتها التي أظهرتها الشدائد والمتغيرات

ويخاطب الفطرة والروح ويلفت الانتباه إلى خطورة المآل الديني والأخلاقي لما جرى في تلك الأعوام الحافلة وستجد هنا تنهيدات حزينة

وزفرات مهمومة وستجد ابتسامة متفائلة وآمال طامحة

وستجد باقي المقالات المائة في الكتاب الآخر الذي يحمل اسما شبيها لكن يغلب عليه طابع مختلف

طابع يخاطب العقل والفكر بشكل غالب

ستجد فيه تأملات هادئة لأحداث جسام ومنحنيات مرت بها الأمة تم تناولها بمنظور مطلق وبإسقاط مختلف

وستجد ردودا على شبهات اشتهرت بين الناس ولاكتها الألسنة والأقلام وأيضا مشكلات وآفات فكرية وأخلاقية رأيت أنها ظهرت وعمت لدرجة احتاجت لعلاجها

وستجد تعقيبات على مواقف حرصت كل الحرص ألا تكون آنية أو موسمية ولكنني اخترت أن انتقي هنا منها ما وجدته فارقا في المسار الفكري العام لأمتنا

هذه المقالات المائة في الكتابين تعد عصارة أعوام صاخبة حافلة امتلأت بالسعادة والحزن والخوف والأمل

نعم هي مقالات متنوعة متعددة المواضيع ربما قد لا يجمعها إلا شيء واحد فقط

أن صلاحيتها لم تنته بعد وأن فحواها لم يزل بعد صالحا للاستعمال القلبي والعقلي

١. (جنة في الدنيا)

صالحا للاستعمال الآدمي

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾

قاعدة قرآنية واضحة ومحكمة ودلائلها الواقعية مشهودة ومدركة

نعم

الإنسان في هذه الدنيا يعيش في كبد ومشقة ويكدح فيها كدحا ويمضي في دروبها من كدٍ إلى نَصَبٍ ومن نَصَبٍ إلى وَصب

هذه حقيقة ذلك السجن المزين الذي يعتقده الكافر جنته ومنتهى أمله

ويستوي في أصل الكبد والمشقة جميع الخلق غنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم وإن كانوا يتفاوتون بعد بذلك في درجات ملاقاة هذا الكبد وتلك المشقة

حتى أولئك الذين قد يبدو على ظاهرهم أنهم قد حازوا الدنيا بحذافيرها أيضا يلاقون في حقيقة الأمر شيئا من الكبد فالكبد طبيعة الحياة الدنيا. تختلف أشكاله وأسبابه. ولكنه هو الكبد في النهاية. وأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمرّ في

الأخرى

وكل نعيم الدنيا زائل وكل متاعها ناقص ودوما ما يعكر صفوه كدر ما، مهما بلغت درجة النعيم وإن رفل في جنباته الملوك وأبناء السلاطين

قَالَ رَجُلٌ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! صِفْ لَنَا الدُّنْيَا. قَالَ: وَمَا أَصِفُ لَكَ مِنْ دَارٍ مَنْ صَحَّ فِيهَا أَمِنْ، وَمَنْ سَقَمَ فِيهَا نَدِمَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، حَلَالُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ؟!. ابن عبد البر: المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧١

ولقد أدرك العقلاء ذلك في كل زمان فعملوا لراحة أنفسهم الراحة الحقيقية التي لا تكون كما قال الإمام أحمد رحمه الله إلا مع أول قدم توضع في الجنة بفضل الله.أبو يعلي الفراء: طبقات الحنابلة ١/ ٢٩١.

ولما قيل للربيع بن خثيم هلا أرحت نفسك - لما وجدوا من نصبه في عبادة الله - رد عليهم قائلا: راحتها أريد

قال القشيري: «فمن أُجِير من النار وصل إلى الراحة الكبرى، ومن صُلِّيَ بالسعير وقع في المحنة الكبرى.

ومن أراد العُلا عفوًا بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وَطَرًا

لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ولا تتم المنى إلا لمن صبرا

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يُدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأنَّ بحسب ركوب الأهوال

واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا همَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله»

هذا هو الأصل والمآل الذي يبغي كل عاقل أن يصيبه

لكن هل يعني هذا أن نعيم الجنة وراحتها لا يتذوق إلا في الآخرة ؟!

هذا ما يظنه البعض للأسف

يظنون أن الدنيا ليس فيها إلا المشقة والتعب والحزن والألم

والحقيقة أن هذا غير صحيح بإطلاق

في الدنيا يمكنك أن تتذوق شيئا من نعيم الجنة

بل يمكنك إدراك ما هو أعلى بأن تحول حياتك إلى جنة

أن تنعم وأنت بين ظهراني الحياة الأولى بشيء من لذات الآخرة

وهذا النعيم قد أدركه البعض ووصفوه

فمن جنة بن عباس رضى الله عنهما الذى وجد من لذة العبادة ما جعله يقول عن أهل جنة الآخرة أنهم لويجدون مثل ما يجد فما أطيب عيشهم

إلى جنة بن تيمية التى أخبر أن محلها فى صدره إن سجن فسجنه خلوة فى تلك الجنة وإن قتل فقتله شهادة تنقله منها إلى جنة الآخرة وإن نفى فنفيه سياحة وتأمل فى أرض الله تدفع القلب دفعا إلى ذكره ليجوب وارف ظلال

جنة الدنيا

أو جنة الحسن البصرى الذى أخبر أنه ومن كانوا مثله يجدون فيها من النعيم واللذة ما لو علمه أبناء الملوك والسلاطين لجالدوهم عليها بالسيوف

إذا فالأمر ممكن والبعض بالفعل أدركه وعاينه وتقلب في حدائق بهجته وبساتين لذته

الدنيا إذا ليست شقاءً خالصا للمؤمنين

والله يقول في سورة طه: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾

ويقول أيضا في نفس السورة: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾

ومرة ثالثة فى قوله عن الشيطان: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾

والملاحظ هنا أن الشقاء نفى في موضعين بالسورة وأثبت فى موضع نفي حال ملازمة القرآن واتباع منهج الله وهداه وتلك جنة الأرض وأثبت الشقاء حال الخروج من جنة السماء حال الاستجابة لنزغات الشيطان

والمعنى الذى يتجلى بجمع هذه الآيات أن الشقاء إنما يكون خارج الجنة والنعيم يكون فقط داخلها

وذلك فى الدنيا قبل الآخرة

فيقل الشقاء حال المكث فى جنة الدنيا التى حدثنا عنها العباد

والصالحون وكرروا ذكرها والتى هى في الحقيقة الطريق لجنة الآخرة حيث لا شقاء ولا نصب ولا وصب ولا جوع ولا ظمأ

لكن كيف يعيش المرء في تلك الجنة وكيف يتذوق شيئا من نعيمها وهو بين ظهراني الدنيا؟!

سؤال كان دائما يثير في عقلي مكامن التفكير ويحرك في قلبي حنين واشتياق لتلك اللذة

ولقد نظرت في نعيم أهل الجنة الذي كلمنا ربنا عن شيء منه في كتابه الكريم فوجدت كثيرا مما فيه يمكن تذوقه في الدنيا

فمن نعيم أهل الجنة مثلا أنهم ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ كما في خاتمة سورة النبأ وكذلك ﴿لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ كما في الواقعة

يُفهم من ذلك إذا أن سماع اللغو والكذب والإثم يعد من منغصات الدنيا وضيق عيشها

ولكم أعجب ممن بإمكانه أن يتذوق بعض ذلك النعيم بالإعراض عن سماع اللغو كما أمره الله ومع ذلك يدمن تنغيص حياته ويزكم أنفه برائحة اللغو والكذب الخانقة

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ وهذا توجيه قرآني جليل يتذوق من استجاب له بعضا من نعيم ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾

فقط عليه أن يكون من عباد الرحمن الذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما

إنهم أهل الفردوس المؤمنون الذين من أهم خصائصهم التي ذكرت في سورتهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾

وتلك والله نعمة وفضل لا يشعر به إلا من تمكن من الاستعلاء على آثام الدنيا ولغوها وكذبها والتفت إلى ما ينفعه وحرص عليه

أما من أدمنوا مجالس اللغو والغيبة وتحروا فاحش القول وساقط الكلام فما أبعدهم عن تلك اللذة وما أشد حرمانهم من هذه النعمة التي هُدي إليها أهل الجنة في الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾

يقول ابن كثير رحمه الله: فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون ويقرعون به

ومن نعيم أهل الجنة أن صدورهم مطهرة منزوعة الغل يرفلون في ثياب المحبة ويتقلبون بين واحات سلامة الصدر ونقاء الطوية ويستظلون بوارف ظلال الأخوة الإيمانية

وفي ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

ومن ذلك يتبين أن الغل والحقد حين يستعر القلب بلهيبه فإن ذلك من

عذاب الدنيا وضيق عيشها الذي يحجب عن أهل الجنة وينقذون منه

وصدر الحاقد دائما ما يكون ضيقا مليئا بالحزن يمزقه اللهاث المسعور ويسيل لعاب طمعه على ما فُضل به غيره

وهولا يرتاح أبدا لأنه يرى أن الكل لا يستحقون ما هم فيه بينما هو وحده من يستحق

ولو أنه انشغل بأداء ما عليه واجتهد ثم ترك النتائج لمن يخفض ويرفع ومن بيده الضر والنفع لارتاح وأراح

أما لو ظل يمد عينيه إلى ما متع به غيره فسيظل في ذلك العذاب طويلا إلا لو جرب يوما أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه

وهو بالمناسبة شعور أجمل بكثير من الحقد

وبدلا من سيطرة تلك المشاعر على نفسه لدرجة تجعله يبغض ذلك المحقود عليه ويمتلىء صدره بالغل تجاهه وربما تطور الأمر إلى الحسد وتمني زوال النعمة عنه فإن عليه أن ينشغل بما ينفعه ويصلح حاله لعله يرزق نقاء السريرة وسلامة الصدر التى هى من أعظم وأجل النعم

أما أكثر ما يطهر القلب من الحسد وينقي النفس من شوائب النظر لما فى أيدي الغير فهو إدراك الإنسان لمعنى القاعدة القرآنية الجامعة: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾

فإن أدرك العبد أن ربه وحده هو من يخفض ويرفع ويعطي ويمنع وأن مطالبه مهما كانت بعيدة وصعبة المنال فلا يأتي بها إلا هو فعلى ماذا يحسد ولماذا يحقد؟!

حينئذ وحينئذ فقط يكون الأمر مستوٍ عنده إن كان في الساقة كان في الساقة وإن كان في الحراسة كان في الحراسة

إن عبارة ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ إن صارت مبدأ حياة تنعم المرء وسلم صدره من أسقام الحقد وأدران الغل وأوجاع الحسد واستبدل كل ذلك بالطمأنينة والرضا وحب الخير للناس.

وأيضا هذا النوع من النعيم تستطيع تذوق لذته في الدنيا وذلك بشيء بسيط يسير فقط على من يسره الله له وصدق في طلبه

ذلك بأن تطهر قلبك وتصفي سريرتك تجاه إخوانك وتحاول أن تبيت وليس في صدرك غلاً للمؤمنين كحال ذلك الرجل الذي أخبرنا النبي ﷺ أنه من أهل الجنة

ويعينك على هذا أن تعود لسانك على دعاء الصالحين ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾

إن حققت تلك الأخوة وأدركت سلامة الصدر وأحببت لأخيك ما تحب لنفسك وكلَّلت ذلك بإحسان الظن والتماس العذر وختمت على ذلك

بختام العفو والصفح الجميل فهنيئا لك قد أدركت شيئا من نعيم أهل الجنة وأنت لم تزل في الدنيا

وأهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد والتكبير كما نلهم نحن في الدنيا التقاط أنفاسنا وقد صح ذلك عن رسول الله ﷺ وصح عنه أيضا أن أول زمرة يدخلون الجنة يسبحون الله بكرة وعشيا ويقول الله عن أهل الجنة ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وبما أن كل ما في الجنة نعيم فيفهم من ذلك أن ذكر الله مما يتنعم به أهل الجنة

وعليه فإن هذا النوع من النعيم أيضا يستطيع المؤمن المسدد أن يتذوقه وهو في هذه الدار الفانية وذلك بأن يرطب لسانه ويحيي قلبه دوما بتسبيح الله وتحميده وتكبيره وذكره آناء الليل وأطراف النهار

وتلك وربي جنة في الدنيا بساتينها وحدائقها تورف في قلب المؤمن وتلقي بظلالها على روحه وتزهر بها جنبات نفسه

ولقد جعل الشرع بعض الأذكار ذات علاقة وثيقة ومباشرة بالجنة ونعيمها

فلا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة

ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا

ورزقه من حيث لا يحتسب وذلك من تمام الطمأنينة التي هي من صميم نعيم أهل الجنة

وكما أن نعيم الجنة خير من الدنيا وما فيها فكذلك هناك من الطاعات ما هو خير من الدنيا وما فيها ومنها ركعتا الفجر وهما السنة القبلية كما وصفهما النبي ﷺ فما بالك بالفريضة نفسها تلك التي هي قرة العين كما صح عن النبي أيضا

ولقد أخبر ربنا أنه حتى النعيم المادي الذي يشابه في وصفه نعيم الجنة لفظا ومعنى إنما ينال في الدنيا بالذكر والاستغفار ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾

وجنة الذكر لا يتذوق لذاتها ولا يستظل بظلالها أولئك الذين ألفوا الذكر كعادة جافة ولكن من يتذوقه حقا من تدبر ما تلاه وتأمل في سناه ورطب قلبه قبل لسانه بفحواه ومعناه

أولئك فقط يدركون تلك اللذة والنعم التي يلهمها أهل الجنة

أما أعظم نعيم أهل الجنة والذي هو النظر إلى وجهه سبحانه وتنضر الوجه بذلك الفضل العظيم وتلك النعمة الجليلة فهذا وإن كان لا ينال في الدنيا بحال فإن النبي قد قرن طلبه إياه بلذة أخرى لعلها تصبر البعض في الدنيا على امتناع لذة النظر إليه فيها

تلك اللذة هي الشوق إلى لقائه والتي أردف بها رسول الله ﷺ دعاءه لمولاه أن يرزقه لذة النظر لوجهه

والشوق إلى لقاء الله نعمة لا يدركها إلا من عرفه حق المعرفة وتعلم عنه وتجول في رحاب معاني أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه

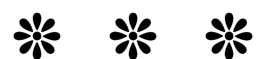
هنا يصيح قلبه المشتاق بصيحة الكليم ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

وتلك والله أعظم جنان الدنيا

أن تعجل لربك ويتحرك القلب بالشوق إليه وتتلذذ الروح بمحبته

بذلك الذي ذكرته وغيره مما لم يتسع المقام لذكره قد تقترب شيئا ما من سكنى تلك الجنة وتذوق بعض لذاتها

هنا، في الدنيا، حيث: جنة الدنيا



٢. طعم الإيمان

الإيمان

يا لها من كلمة

ما إن تذكر حتى تشعر ببردها يسرى من القلب لينساب بهدوء، وسكينة إلى سائر مكونات الروح، وثنايا النفس

كلمة الإيمان

كلمة حلوة!

نعم حلوة.

مذاقا لا وصفا.

مذاقها حلو لأن مذاق مدلولها حلو.

لكنها حلاوة يجد القلب مذاقها، وبها تلتذ النفس، ويطيب الوجدان، وتسمو الروح

لقد حرص رسول الله ﷺ أن يجسد فى وجدان المسلم، وشعوره معنى هذه الكلمة تجسيدا مذهلا فى أحاديث لا تحصى حتى تكاد تلمس، وتتذوق، وتجد حلاوة المعنى فى فمك لطلاوة الوصف، وبديع المثال.

تأمل قوله: «**ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا**

وبمحمد رسولا»

وقوله «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر، بعد إذ أنقذه الله، كما يكره أن يلقى في النار**»

وقوله «**ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان؛ حتى تؤدي حق زوجها**»

وكأنى بحبيبى ﷺ يريد أن يشعرك بلذة تسرى إلى روحك، ويتذوقها قلبك كلما ذكرت هذه الكلمة

وليس فقط الطعم، ولذته تشعرك بها كلمات الحبيب بل حتى اللذة البصرية أرادك أن تشعر بها حين تسمع كلمة «الزينة» فى قوله: «**اللهم زينا بزينة الإيمان**»، ويستقر الإحساس أكثر حين تسمع قول ربك: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾

تجسيد عجيب لهذا المعنى الأهم فى حياة كل منا ظهر فى كلمات لا تحصى للنبى ﷺ أذكرها لعلها تكون محاولة يسيرة لنتذوق طعم الإيمان (الحلو)، ولنرى زينته ونشهد بهاءه بعين قلوبنا

الإيمان

تلك الكلمة التى حرص رسولنا الكريم ﷺ على تجسيد معناها فى قلب، وعقل المؤمن حتى يكاد المتأمل يشعر أنه سيمسكه بيده، ويتذوقه بلسانه، ويشعر ببرده، وبشاشته فى ثنايا نفسه

كذلك كرر النبى تشبيه الإيمان بأمور محسوسة، وملموسة فتارة يشبهه بالحبل المتين الذى يشتمل على العرى المعقودة، والموثقة كما فى قوله «**أوثق عرى الإيمان الحب فى الله، والبغض فى الله**»

وتارة يشبهه بالثوب كما فى قوله «**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم**» صحيح الجامع

وليس أى ثوب بل تجده يدقق التشبيه فيمثله بالحلة، وهى من أفخر الثياب «**من ترك اللباس تواضعا لله وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها**» صحيح الجامع

وكم من مرة شبه الإيمان بشىء يوزن، ويكال فتجده مرة يقول «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»

وفى حديث آخر تجده يذكر مثقالا لكمِّ الإيمان فى قلوب العباد فيقول كما فى الحديث القدسى «**اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار**» صحيح البخارى

وتجده تارة ثالثة يمثله بشىء له كتلة تقسم، وتنشطر كما فى قوله ﷺ «**الطهور شطر الإيمان**»

بل ويشبهه النبى ﷺ أحيانا بالسحابة التى ترخى ظلها على من يكون تحتها كما فى قوله عن مرتكب الفاحشة كيف أنه حال ارتكابها «**خرج منه**

الإيمان، وكان عليه كالظلة، فإذا انقطع رجع إليه الإيمان» السلسلة الصحيحة

وهكذا تشعر أنك بصدد شيء له وزن، وحجم، وملمس، وظل تستظل به

والإيمان ليس شيئا جامدا أو ساكنا، ولكنه مشاعر تتحرك، ومعانٍ تتنقل، وأحاسيس تزيد، وتنقص

لقد شبه النبى ﷺ حركة الإيمان بمشهد سريع مباغت

مشهد أروز الحية، ورجوعها إلى مأواها، ومكان أمنها وطمأنينتها

كذلك الإيمان...

فإنه يأرز، ويعود فى النهاية إلى مأواه، ومستقره فى مدينة رسول الله ﷺ كما فى قوله «**إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها**» رواه البخارى

وهو يزيد، ويعلو منسوبه فى القلب تزيده الأعمال الصالحة، وتعلى منسوبه تلاوة القرآن ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

تأمل قوله تعالى ﴿زَادَتْهُمْ ﴾

وتأمل أيضا كلمة ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ ﴾ فى قوله جل وعلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾

تشعر أنك بصدد شيء يتحرك ويتغير منسوبه فى القلوب

يزيد!

وما دام يزيد فإنه من الممكن أن ينقص

فتتعوذ بالله من نقصه، وتسعى دوما لزيادته فاللهم زد الإيمان فى قلوبنا

وكما أنه يزيد، وينقص فإن له كلاً، وجزءاً، وكمالا وقصورا، وحقيقة ووهما، وقوة، وضعفا، وقد بين رسول الله ﷺ ذلك فى أكثر من حديث فقال مرة: «لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاحة، والمراء وإن كان صدقا»

وحدثنا عن أكمل المؤمنين إيمانا مبينا أنهم أحاسنهم أخلاقا

وكلمنا عن حقيقة الإيمان فى قوله «إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»

وبين لنا أن المؤمن القوى خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وأخبرنا أن أضعف الإيمان أن ينكر المؤمن منكرا بقلبه

وأعجب، وأهم تشبيهات الإيمان فى رأيى، والله تعالى أعلى وأعلم هو تشبيهه بالمكان متسع الأرجاء ذى الطرائق، والشعب أو بالبنيان المشيد ذى الأبواب المتعددة كما فى قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ أفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، وفى رواية صحيحة «**بِضعٌ وسبعون بابًا**»

هل نظرت من قبل إلى الإيمان تلك النظرة الواسعة الرحبة؟

أبواب، وشعب

طرائق، وسبل

إن تعدد الشعب، والطرق لا يكون إلا فى مدينة أوقرية

وإن تعدد الأبواب لا يكون إلا فى بناء ضخم أوقصر مشيد

بناء تعلوه كلمة التوحيد، وسلامة المعتقد، وأساسه العمل، ونفع المسلمين، ولو بإماطة أذى أودفع ضرر عن طريقهم

وزينته الخلق الحسن، ولكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء كما صح عن رسول الله ﷺ

فأين نحن من مدينة الإيمان، وكم سلكنا من شعبها، وطرقنا من أبوابها؟

إنك حين تنظر إلى الإيمان على أنه مدينة مترامية الأطراف عليك أن تسلك شعبها، وتسير فى طرقاتها التى تزيد عن السبعين أو تنظر إليه على أنه بناء شامخ يسر الناظرين له أكثر من سبعين بابا عليك أن تطرقها فإن ذلك لا يجعل الأمر صعبا أو معقدا كما يظن البعض

على العكس

إن الحديث الذى بين الحبيب ﷺ فيه أن للإيمان شعبا، وأبوابا ضرب أمثلة لتلك الشعب فى غاية من اليسر على من يسرها الله عليه

هل إماطة الأذى أمر صعب

هل الحياء أمر شاق

هل قول لا إله إلا الله، وتعلمها، والعمل بها أمر عسير

والله إنها كما قلت لأمور يسيرة على من صدق، وأخلص

لكنها على يسرها بينت حقيقة البعض يتغافل عنها

بينت أن الإيمان مهمة حياة

بينت أنه مشوار يحتاج إلى أمرين رئيسين عندما تتعامل معه

إرادة، ومسؤولية

إرادة أن تسلك الشعب جميعا، وأن يكون لك فى كل منها، ولو سهم يسير

ومسؤولية نابعة من تقديرك أن الأمر عظيم، وليس بالتمنى، ولكنه ما وقر فى القلب، وصدقه القول، والخلق، والعمل

فإن توفرت الإرادة، وأردفتها بالعمل بعد أن أدركت قيمة المسؤولية فأبشر

إن الله لن يضيع البذل، ولا يقابل الإحسان إلا بالإحسان، وسترتقى بإذنه، وكرمه فى درجاته

حين تسلك شعبه وتطرق أبوابه وتتمسك بحبله ومن ثم تجد طعمه طعم الإيمان

٣. لست بكاسد !!

«ولكنك عند الله لست بكاسد»

هى جملة قالها النبى ﷺ لرجلين من أصحابه فى موقفين مختلفين

رجلين هانا ودنى قدرهما عند الناس بل وعند أنفسهما

أما الأول فهو جليبيب رضى الله تعالى عنه

عرض عليه النبى أن يزوجه فقال: إذا تجدنى كاسدا يا رسول الله

وأما الثانى فهو زاهر بن حرام مازحه النبى قائلا من يشترى العبد فقال نفس الكلمة: تجدنى يا رسول الله كاسدا

الصحابيان كانا دميمي الخلقة لا يحب الناس النظر إليهما ولا يعنون بشأنهما أو يقدرونهما حق قدرهما لدرجة أثرت على ثقة كل منهما بنفسه وجعلته يشعر بهوانه على الناس وكساده وعدم رغبة الناس فيه حتى قالا تلك الكلمات التى تنم عن تدنى نظرتهما لأنفسهما

هنا علمهما النبى ﷺ وعلم الأمة معهما تلك القيمة التربوية الرفيعة وهذا المعنى العظيم

القيمة التى فقدت فى مجتمعات مادية لا تزن الناس أو تحكم عليهم إلا من خلال المظهر الخارجى أو المقام والمنصب فتحقر هذا وتنتقص من ذاك

وتمتهن كرامة هؤلاء وتسخر من أولئك ولربما كان أدنى المهانين فى نظر الناس خير من ملء الأرض ممن يمتهنونه ويسخرون منه

لأنه ببساطة عند الله ليس بكاسد

بينما نجد أناسا يشار إليهم بالبنان، وتُنظم فى مدحهم القصائد، وتدبج فى مناقبهم المقالات والمقولات، وهم فى الحقيقة لا يساوون عند الله جناح بعوضة،

فى الحديث إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرءوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾

بكلمتين لخص رسول الله ذلك المعنى وعلم أمته أن القضية ليست قضية مظهر وقشرة خارجية قد لا تعبر عن نفاسة قدر أو نقاء معدن وأن العبرة ليست بمقام المرء عند الناس

«عند الله»

فكم من كاسد عند بنى البشر لكنه غالٍ عند رب البشر وتلك هى القيمة الحقيقية التى حرص النبى دوما أن يرسخها فى نفوس أتباعه

حرص على ترسيخها حين ضحكوا من دقة ساقى الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فأخبر أن تلك الساقين أثقل عند الله من جبل أحد

وحرص على ترسيخها حينما عجبوا من لين ونعومة ثوب حريرى

أهدى إليه فقال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا؟ مَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا**»

وحرص على ترسيخها حين ذكر الأشعث الأغبر المدفوع بالأبواب الذى هو رغم ذلك إذا أقسم على الله لأبره

تأمل عجيب شأنه

يقسم على الله؟!! فيبره!!

ما أرفع قدره!

رجل بسيط من عوام الناس بل من فقرائهم جهل الناس مكانته، واحتجبوا عنه بظاهر حاله، فدفعوه بالأبواب، وأعرضوا عن إجابة حاجته، وردوا شفاعته فانحجبت عنهم معالم ولايته،

لكنه يبقى صاحب المقام،

المقام الحق،

المقام الذى يبتغى، والمنزلة التى ترتجى، والمكانة التى يبذل من الغالى والنفيس للوصول إليها وتحصيلها

فعنده سبحانه؛

الناس درجات،

والخلق مقامات،

والوري طبقات،

لكنها ليست تتفاضل بمعايير أهل الدنيا، من مال وجاه ومنصب وعز ومظهر،

حاشا وكلا،

إنما هى مقامات وطبقات أخرى،

رأس مالها التقوى، وخزانتها الخشية، ومفتاحها صحيح العقيدة، وكنزها خالص العبادة، واستثماراتها فى العمل الصالح والنفع لكل الخلق وخير الناس أنفعهم للناس

كم من مواقف أصل فيها النبى ﷺ لذلك المعنى الراقى وشحذ الهمم لتطلب هذا القدر الرفيع عند المولى جل وعلى وليكون المرء مستحقا لهذه الجملة الغالية

«ولكنك عند الله لست بكاسد»



٤. لست بملك

قشعريرة باردة تلك التي سرت في جسد الرجل سرعان ما انتقلت إلى قلبه الذي كان ينتفض بشدة بين أضلاعه بينما ترتعد فرائصه وترتعش أطرافه وهو يقف انتظارا لتلك اللحظة المهيبة

الآن سيخرج إليه

سينظر إليه ويكلمه

ليت شعري كيف السبيل إلى تحمل ذلك؟

كيف ستطيق عيناه تأمل وجهه المنير وبأى نفسية سيواجه مثل هذا الموقف العظيم

سيقف بعد لحظات بين يدي سيد ولد آدم أجمعين

سيقف بين يدي قائد الأمة وإمام المتقين وقرة عين المؤمنين

سيقف بين يدي حامل لواء الحمد يوم يقوم الناس لرب العالمين

إنه رسول الله وخاتم النبيين

كيف إذا لا يرتعد قلبه ولا تهتز فرائصه لهول اللقاء المهيب وهو الرجل البسيط الذي لم يقف من قبل بين يدي ملك ولا عظيم؟!

حق له ذلك

بل أكثر

«هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»

نزلت تلك الكلمات كالبرد سلما وأمانا على قلب الرجل المسكين

يا لتواضعك وعذب حديثك وطيب معشرك يا إمام النبيين!

يا لبساطة أسلوبك وعدم تكلفك ولين جنابك وخفض جناحك للمؤمنين!

لست بملك ممن نعرفهم من ملوك الدنيا

لا تأبه بسلطانهم ولا تطمع في صولجانهم ولا ترضى أن تعامل مثلهم وحق لك أن تعامل أفضل مما يعامل ملء الأرض من مثلهم

لكنه الخلق العظيم والتواضع المبين وخفض الجناح للمؤمنين.

هكذا تعلنها بكل تواضع وتتذكر بساطة نشأتك وبغير تكلف تبين بساطة طعام أمك

ولو شئت لسارت معك جبال الذهب والفضة لكنك تعلنها دوما كما أعلنتها لذاك الملك الذي جاءك وإن حُجْزَتَهُ لتستوي بالكعبة يخيرك بين أن تكون نبيا عبدا أو نبيا ملكا فاخترت ونعم الاختيار؛

بل نبيا عبدا

بل نبيا عبدا

اخترت التواضع يا محمد

اخترت أن تأكل كما يأكل العبد وتجلس كما يجلس العبد وتقول: إنما أنا عبد

اخترت أن تكون في بيتك في مهنة أهلك ترقع ثوبك وتخصف نعلك وتحلب شاتك ولا يقف على بابك حارس ولا حاجب ولا تعيش في ملك ولا صولجان كما يفعل ملوك الدنيا

بل تركب بغلتك وتحج على رحلك الرث وتفترش حصيرا خشنا يؤثر في جنبك

تترك زخرف العيش وبهرجه وترضى أن يكون لهم في الأولى وتكتفي أنت بالأخرى

أبيت دوما أن يقوم لك أحد وحرصت أن تجلس حيث انتهى بك المجلس حتى أن الأعرابي من هؤلاء كان يأتيك بين أصحابك لا يعرفك فيقول: أيكم محمد ؟

كنت دوما مثالا للتواضع وخفض الجناح وعدم التكلف

ما تركت يد أحد سلم عليك حتى يكون هو نازعها أولا وما نحيت رأسك عن أحد تيمم أذنك يحادثك في أمر أهمه حتى يفرغ وما صعرت يوما خدك لصغير ولا كبير

تأتيك الصغيرة لبعض شأنها فتذهب معها وإلى جوارك رجل من عظماء العرب ظن أنه ملك يمشى إلى جوار ملك

فإذا به يقف مشدوها لفعلك حين تتركه وتذهب مع الجارية لتشفع لها عند سيدها الذي ضربها

وها أنت يا حبيبي وسيدي تمشي في الأسواق فتمزح مع هذا وتبسط وجهك في وجه ذاك وتلين لأولئك

وهل ننسى أبدا حين اشتملت زاهر بن حرام مازحا وقائلا من يشتري العبد فيرد بانكسار: إذا تجدني كاسدا فتجبر خاطره وتطمئن فؤاده قائلا ولكنك عند الله لست بكاسد

لو شئت لكنت أغنى الناس وأعلاهم ملكا وأرفعهم مجلسا ومع ذلك تجيب دعوة خادمك أنس لتطعم من طعامه البسيط في بيت جدته مليكة ثم تقوم لتصلي بهم على حصير بالٍ قد اسود لونه من كثرة الافتراش

لم تقبل يوما أن تُطرى أو يغلو فيك الخلق ويرفعوك فوق منزلة المخلوق وكنت تقول بأبي أنت وأمي: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم عليه السلام

وحين جاءك الرجل يناديك: يا خير البرية نهيته بتواضع لو وزع على أهل الأرض لوسعهم قائلا: «**ذاك أبي إبراهيم عليه السلام**» وكذا تنهى الأمة أن يخرج منها من يقول يوما «**أنا خير من يونس بن متى**».

وحينما اضطررت أن تبين للناس أنك سيد ولد آدم من باب الإخبار بحقيقة ثابتة حرصت على أن تقرنها بقولك المحكم: «ولا فخر»

ويوم تدخل مكة فاتحا منتصرا عزيزا كريما تأبى أن تدخلها على حال القادة المنتصرين المستعلين بل تحنى جبهتك منكسرا لربك حتى يكاد عثنونك أن يمس مقدمة رحلك الرث

كانت تلك حياتك وذاك تواضعك ولين جانبك فما بال كثير من أتباعك اليوم قد غيروا وبدلوا؟

ما بال بعضنا اليوم نسى أو تناسى أن ذلك الذي في السطور الماضية هو هدي حبيبه وقدوته وخلق خير من وطئ الثرى بقدميه

ما باله ينسى فينزل نفسه أو غيره فوق المنزلة ويعامل الناس من فوق برجه العاجي بتكلف واستعلاء كأنما هو ملك أو أمير؟

إن ما نراه اليوم من مهازل في معاملة بعض من نحسبهم من أهل الفضل يشى بآفة خطيرة تتسرب إلى أمتنا من حيث لا ندري

آفة الغلو والتكلف وإنزال الخلق فوق منزلتهم

تلك الآفة التي هي ذلة للتابع وفتنة المتبوع والتي ينبغي أن تزول فورا من بيننا وأن يسعى أهل الفضل دوما لنبذها وعدم السماح لأحد أن يعاملهم في إطارها وأن يتذكروا ويذكروا غيرهم دوما بأن خير الهدي هدى نبينا وأنه رفض دوما أن يتكلف أحد في معاملته وأعلنها صريحة قائلا

لست بملك!!

٥.هل صاحبت القرآن

قد يزامل الإنسان فى حياته أناسا كثرا

وقد يتعارف على أناس أكثر

وقد تتسع دائرة معارفه لدرجة لا تمكنه من تذكر أسماءهم حين يقابلهم

لكن قليل من يستحق أن يقول عنه المرء صاحبا

فكر قليلا

كم من معارفك تستطيع أن تسميه صاحبك؟

صاحبك قريب من قلبك

تعرفه.. تعرف صفاته... تعرف مميزاته.. خصائصه.. لك معه ذكريات.. وتكن لهم مشاعر

يذكر أمامك فتعتمل فى صدرك تلك المشاعر وتتأتى إلى ذهنك تلك الخصائص وتقفز إلى مخيلتك بعض من هذه الذكريات

إن غاب عنك استوحشت وإن طال فراقكما إليه اشتقت وإن جاء موعد اللقاء به فرحت

لكن هل تعلم أن النبى ﷺ اختار فى العديد من أحاديثه أن تكون علاقتك بالقرآن علاقة صحبة

«يقال (لصاحب) القرآن»، **«يأتى شفيعا (لأصحابه)»**، **«تظلان (صاحبهما)»** إلى آخر تلك الأحاديث التى استعمل فيها لفظ الصحبة مع القرآن

والسؤال هو هل يمكننا حقا أن نصف علاقتنا بالقرآن أنها صحبة وأنس؟

هل صاحبنا القرآن؟

بل هل صاحبنا بعضا من سوره؟

بل هل صاحبنا سورة واحدة منه؟

هل نستحق أن يقال لنا يوم نرجع إلى الله هلموا يا أصحاب القرآن؟

إن كانت الإجابة بـ«نعم» فهنيئا لموفق

وإن كانت بـ«لا» فماذا يمنعنا إلى الآن؟

هل وجدنا صاحبا أفضل؟

حاشا وكلا

إذًا أقولها نصيحة لنفسى ولإخوانى: هلموا بنا نحيا فى تلك الصحبة

❊ ❊ ❊

٦. ده مستحب..

كلمة مستحب دي كلمة جميلة جدا على فكرة
البعض يقصر وقعها في نفسه على المدلول الفقهي في جعل هذا المدلول تمهيدا للتثاؤب وعدم العمل بما تم وصفه بتلك الكلمة
مستحب؟!
يعني مش حرام إني أتركه؟!
طب خير.. الحمد لله..الدين يسر
استنى استنى..
فكر تاني كدة..
مستحب يعني إيه؟!
يعني: ما يثاب فاعله امتثالا ولا يستحق تاركه العقوبة
يا أخي مش بأسألك عن تعريفها الأصولي والفقهي
أنا بأسألك عن معنى الكلمة نفسها
مستحب يعني هنا كمن يحبه مش كدة
مين بقى اللي بيحبه؟
ربك

الودود سبحانه وتعالى

الكريم جل شأنه

يحب هذا العمل

ويحب لك أن تعمله

عمرك فكرت فيها كدة؟

ربي الذي أتقلب في نعمه وأتمتع بفضله وأبيت وأصحو في خيره بيحب هذا

هكذا ينبغي أن يكون وقع الكلمة في قلبك

«**ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه**»

ياااااه

ما أجملها من كلمة

حتى أحبه..

حين تنتقل المحبة من العمل إلى العامل ومن الطاعة إلى الطائع

تنتقل إليك أنت يا من تقوم بالمستحب

عرفت بقى إيه هو المستحب؟

اللي ربك بيحبه

ما تفكرش في مسألة لا يأثم تاركه إلا لما تكون محتاجلها

الفقهاء لما قسموا هذا التقسيم ما كانش قصدهم توهين امتثالك أو

تقليله أو كان غرضهم شرعنة ترك المستحبات كأصل ولكن كان مقصدهم رفع الحرج الشرعي وعدم التكليف الفرضي بما لم يفرضه الله عليك

لكن هذا لا ينفي أنه يحبه

وأنه ما دام عمل سهل يسير أو حتى فيه بعض المجهود بس إنت عندك قدرة تعمله يبقى تسأل ليه عن الترك؟!

خلي الترك ده للي مش قادر أو الذي تكاثرت عليه الشرائع فلم يوف بحقها أو المبتدىء الذي يوغل برفق أو للأسف اللي مش فارق معاه أوي إن ربنا يحبه

لكنك تريد محبته وتبتغي رضاه

مش كدة ولا إيه؟



٧.ادن مني

ائذن لي في الزنا

يا لها من كلمة

كيف جرؤ الشاب أن يقدم على قولها بين يدى رسول الله ﷺ؟!

أى شهوة مستعرة تلك التي تلظى لهيبها في قلبه اليافع وأدت به إلى ذلك المسلك العجيب ودفعته لذلك الجهر الرهيب؟

- مه مه يا هذا

تصاعدت أصوات تلك الهمهمات الغاضبة زاجرة الفتى عما يخوض فيه بين يدي إمام المتقين وسيد الأطهار المتبتلين

لكن صوتا حانيا قطع كل تلك الهمهمات الزاجرة داعيا الفتى المستأذن بالزنا لآخر ما يتصوره جافٍ أو قاسي القلب

لقد تكلم الحبيب

قال كلمة تقاطر منها الحنو الحاسم

قال: ادنه

أى اقترب

تعالى إلى جوار من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم

أقبِل على من قيل فيه: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾

ادن من صاحب الخلق العظيم وسيد ولد آدم أجمعين

هكذا عامله رسول رب العالمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم

لقد دعاه ليقترب

ناداه لينهل من حنانه وحسن منطقه وعذوبة حديثه وحكمة دعوته

- أَتُحِبُّه لِأُمِّكَ؟

- لا واللهِ جعلني اللهُ فداءَك

قال: ولا الناسُ يُحبونَه لأُمهاتِهِم

أفتُحبُّه لابنتِك

- لا واللهِ يا رسولَ اللهِ جعلني اللهُ فداءَك

لأختك؟ لعمتك؟ لخالتك؟

منطق هادىء سديد وحكمة دعوية رائقة وحسن معشر ولين جانب وخفض جناح

هكذا كان سيدى وقرة عيني بأبي هو وأمي

هاهو يكلل حسن دعوته بلمسة حانية ومودة عملية صافية

هاهو يمد يده ليمسح بيده الشريفة على صدر الفتى المستعر بالشهوة ويشفع مخاطبته الأولى لعقله بتربيت رحيم على محل عاطفته ومكمن مشاعره ويرفق ذلك بدعوة صالحة مطهرة محصنة

ليتكامل خطاب المنطق مع ملامسة الفطرة وليخرج الغلام وقد زالت وساوس الشيطان من صدره وهدأ قلبه وارتاحت نفسه

هكذا تعامل حبيبي صلوات ربي وسلامه عليه

وهكذا دعا وفند وأقنع

أفلا نتأمل



٨. أوجدتم علي؟!

ومن عجيب ما لم يتدبره البعض قول سعدُ بنُ عُبادةَ رضى الله عنه لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ اللهِ إنَّ هذا الحَيَّ مِن الأنصارِ قد وَجدوا علَيكَ في أنفسِهِم؟

قال سعد تلك الكلمات لَمَّا أصابَ رسولُ اللهِ الغنائمَ يَومَ حُنَينٍ، وقسمَ للمُؤلفة قلوبهم مِن قُرَيشٍ وسائرِ العربِ ما قسمَ، ولَم يكُن للأنصارِ شيءٌ مِنها، قليلٌ ولا كثيرٌ فكان أن تسرب إلى أنفسهم نوع من الحزن لذلك وتردد بينهم أن رسول الله قد عاد إلى قومه وجافاهم

لما سمع رسولُ اللهِ ﷺ تلك الكلمات من سعد بن عبادة لم يزجره أو يفعل كما يفعل البعض اليوم من رفض لمجرد السؤال وطلب البيان والتوضيح وإنما قال بكل هدوء وسماحة نفس: فأينَ أنتَ مِن ذلكَ يا سعدُ؟

فقالَ سعد: ما أنا إلَّا امرؤٌ مِن قَومي

تأمل يا عزيزي

هذا رسول الله ﷺ

أولى الناس بالثقة في أفعاله وتصرفاته ومع ذلك ولإدراكه لطبيعة النفس البشرية التي تحتاج دوما إلى البيان والوضوح ولإدراكه أيضا لمداخل

الشيطان إلى القلوب لم يفعل مثلما تفعل أنت

لم يرفض الأمر من بابه أو يضع الحواجز بينه وبين القوم معتمدا على الثقة المفترضة والمتوقعة وإنما قدر مشاعرهم واختار الوضوح والبيان الذى كان دأبه في كل مقام وما حديث «**إنها صفية**» عن الأذهان ببعيد

المهم أنه لما علم ما تسرب إلى أنفس الأنصار تحرك فورا وقرر ألا يؤخر البيان لحظة واختار الوضوح الكامل والبيان الشافي لكيلا لا يترك أى مدخل للشيطان فقامَ فيهِم خطيبًا فحمِدَ اللهَ وأثنَى علَيهِ بما هوَ أهلُهُ،

وقالَ: واللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم فصدَقتُم وصُدِّقتُم: جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ، وعائلًا فآسَيناكَ، وخائفًا فأمَّنَّاكَ، ومَخذولًا فنصَرناكَ...

فقالوا: المَنُّ للهِ ورسولِهِ.

فقال: أوَجَدتُم في نُفوسِكُم يا مَعشرَ الأنصارِ في لُعاعَةٍ مِن الدُّنيا تألَّفتُ بِها قَومًا أسلَموا، ووَكَلتُكُم إلى ما قسمَ اللهُ لكُم مِن الإسلامِ! !

وضوح وشفافية كاملة حينما احتاج الأمر إليها

لقد بين رسول الله العلة ولم يترك مجالا للظنون وأوضح سبب ما فعل ولم يفته أن ينزل الأنصار منزلتهم ويذكر فضلهم وختم حديثه بأعظم تكريم لهم قائلا:

أفَلا تَرضَونَ يا مَعشرَ الأنصارِ أن يذهبَ النَّاسُ إلى رِحالِهِم بالشَّاءِ والبَعيرِ وتذهَبونَ برسولِ اللهِ إلى رِحالِكُم؟.

فَوَالَّذي نَفسي بيدِهِ، لَو أنَّ النَّاسَ سَلَكوا شِعبًا وسَلَكتِ الأنصارُ شِعبًا، لسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ، ولَولا الهجرةُ لكُنتُ امْرَأً مِن الأنصارِ. اللَّهمَّ ارحَمْ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ. فبكَى القَومُ حتَّى أخضَلوا لِحاهُم. وقالوا: رَضينا باللهِ رَبًّا، ورسولِهِ قسمًا، ثمَّ انصرفَ..

وهكذا علمنا رسول الله كيف تكون القيادة وكيف يلتحم الصف وتوأد الفتن في مهدها

وقد كان لنا فيه أسوة حسنة

أفلا نتدبر؟



٩. لصاحب الحق مقالا

واغدراه

واغدراه

ما أن سمع الناس ذلك الأعرابي يصيح بتلك الكلمات في وجه رسول الله ﷺ حتى كادوا أن يفتكوا به

أقبل الجمع إليه يزجرونه بشدة قائلين: قاتلك الله أيغدر رسول الله ﷺ!

أما تسمع تلك الكلمات التي يقولها رسول الله

ها هو يحادثك بسكينة وروية قائلا: يا عبدَ اللهَّ، إنَّا قد ابتَعنا منكَ جزورًا بوَسقٍ من تمرِ الذَّخرةِ، فالتَمسناهُ، فلَم نَجِدْهُ

كلمات هادئة مقنعة قالها الحبيب ﷺ لذلك الأعرابي الذي كان قد باعه جزورا بذلك الوزن من التمر

المشكلة أن النبي ﷺ لم يجد لديه ما يكمل ذلك الوزن فأراد أن يعوض الأعرابي بشىء آخر يملكه

لكن الأعرابي لم يمهله

بل صاح فورا وبغلظة الأعراب: واغدراه... واغدراه!!

الرجل لا يكاد يسمع والقوم يحتدون عليه يحاولون إسكاته عن التلفظ بتلك الكلمات القاسية

والأعرابي يزداد إصرارا مرددا: واغدراه واغدراه

«**دعوهُ، فإنَّ لِصاحبِ الحقِّ مقالًا**».

هكذا وجه رسول الله ﷺ أصحابه الغاضبين مبينا لهم تلك القاعدة العظيمة

إن لصاحب الحق مقالا

ثم أعاد النبي ﷺ توجيه الخطاب مرة أخرى للأعرابي قائلا: يا عبدَ اللهَّ إنَّا ابتَعنا منكَ جزورَكَ ونحنُ نظنُّ أنَّ عندَنا ما سمَّينا لَكَ، فالتَمسناهُ، فلم نَجِدْه

تأمل حلمه وصبره وهو يفسر للأعرابي ما حدث وكيف يبين له أن الأمر ليس غدرا ولكنه ظن أن لديه التمر ثم فوجىء بعدم وجوده

لكن لا فائدة

الأعرابي لا يفقه ولا ينفك عن ترداد كلماته القاسية ورسول الله يكرر نهيه لأصحابه عن زجره قائلا: دعوهُ، فإنَّ لِصاحبِ الحقِّ مقالًا

فلمَّا رآهُ لا يفقَهُ عنهُ، قالَ لرجلٍ مِن أصحابِهِ: اذهب إلى خُوَيْلةَ بنتِ حَكيمِ بنِ أميَّةَ، فقل لَها: رسولُ اللهَّ ﷺ يقولُ لَكِ: إن كانَ عندَكِ وَسقٌ من تمرِ الذَّخرةِ، فأسلِفيناهُ حتَّى نؤدِّيَهُ إليكِ إن شاءَاللهَّ. فذَهَبَ إليها الرَّجلُ، ثمَّ

رجعَ، فقالَ: قالت: نعَم، هوَ عِندي يا رسولَ اللهَّ، فابعَث من يقبضُهُ، فقالَ رسولُ اللهَّ ﷺ للرَّجلِ: اذهب بِهِ، فأوفِهِ الَّذي لَهُ قالَ: فذَهَبَ بِهِ، فأوفاهُ الَّذي له

وبالفعل تقاضى الرجل وسق التمر ثم مر برسول الله في طريق عودته فلما إن رآه حتى صاح قائلا: جزاك الله خيرا قد أوفيت وأطيبت

فقال رسول الله ﷺ: أولئِكَ خيارُ عبادِ اللهَّ عندَ اللهَّ يومَ القيامةِ الموفونَ المطيِّبونَ

تأمل كيف تعامل رسول الله مع الأعرابي بمقتضى حاله وباعتبار مستوى إدراكه والأهم أن تتأمل كيف قدر مشاعر صاحب الحق وكيف علم الصحابة تلك القيمة العظيمة

إن صاحب الحق ينبغي أن يقدر وأن يُعتبر شعوره ويُعنى بإحساسه

ورغم أن النبي ﷺ معذور فهو لم يكن يعلم أن التمر لا يكفي إلا أنه لم يصر على أن يعطيه شيئا بديلا بل آثر أن يؤدي ما أراده الأعرابي وما رآه حقا له فكسب بذلك قلبه وعلم الأمة درسا في الوفاء وحسن التعامل مع الخلق

❊ ❊ ❊

١٠. كلهم خطاؤون

حديث من أعظم أحاديث الحبيب ﷺ رغم أن أغلب المسلمين يحفظونه إلا أن هناك مشكلة حقيقية في التعامل معه من جميع الأطراف للأسف الشديد

إنه حديث **كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**

كلمات جامعة كعادة من أوتي جوامع الألفاظ بأبي هو وأمي صلوات ربي وسلامه عليه وهي تلخص بتراكيبها البسيطة معنى في غاية الخطورة لا أحد معصوم من الخطأ ما دام ينطبق عليه هذا الوصف وصف ابن آدم صحيح هناك استثناءات في حالة النبوة والرسالة لكنها استثناءات معدودة على مستوى البشرية ومن ثم كان الحكم على الغالب وأطلق اللفظ وسبقته كلمة: **كل**

الكل يخطىء ويصيب ويزل ويسدد ويعصي ويطيع لذا كان الخطاب بالتوبة عاما مطلقا وذلك في قول الله جل وعلا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

فالجميع بحاجة إلى التوبة وتصحيح الخطأ والندم عليه لكن هذه التوبة لا تنفي وجود الخطأ وربما آثاره وما يترتب عليه خصوصا إن كان في حق

البشر

والأهم ألا ينسب الخطأ لمنهج الله وأن ينزه دينه عن زلات الأتباع لذلك حرص النبي ﷺ أيما حرص على ذلك التنزيه ويتجلى هذا الحرص في ذلك الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: «**وإذا حاصرت أهلَ حصنٍ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نبيِّه فلا تجعلْ لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّه ولكن اجعلْ لهم ذِمَّتَك وذمَّةَ أصحابِك فإنكم أن تُخفِروا ذِمَمكم وذِمَمَ أصحابِكم أهونُ من أن تُخفِروا ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ رسولِه**»

كلمات تحتاج إلى تدبر وتأمل خصوصا في زمان صار فلان أو علان يحسب أنه هو الدين وصار أناس يقبلون بلسان الحال أو المقال أن فلانا أو علانا فعلا هو الدين وينسى هؤلاء وأولئك أن منا منفرين وأننا من بني آدم «**الخطــائــين**»

تأمل في الحديث حرص النبي ﷺ على مقام ذمة الله وذمة رسوله

وتأمل كيف أوصى أمراءه في الجهاد إذا عاهدوا أحدا وأرادوا أن يجعلوا لهذا العهد ضمانا وذمة ألا ينسبوها لله جل وعلا أو لرسوله ﷺ

ذلك لأنهم بشر غير معصومين ولربما اضطروا أن يخفروا عهدهم لأى سبب كأن يبدو لهم غدر المشركين أو يغلب على ظنهم خيانة منهم فيضطروا إلى عدم إمضاء العهد أو حتى يصد منهم خطأ أو زلل فحينئذ لا ينسب ذلك لله ولا لرسوله وإنما لأنفسهم

هم من يتحملون الخطأ إن حدث لكن لا ينسب الأمر لربهم أو لدينهم أو لنبيهم ﷺ

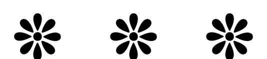
وفي هذا تفريق واضح يغفل عنه كثير ممن يظنون أنهم هم الدين وأنه بهم ولهم حتى إذا حدث الخلل أو الخطأ وجدت البعض للأسف ينسبه للمنهج وربما يقع في قلبه أن هذا هو الدين عياذا بالله

لكن انظر إلى حرص النبي ﷺ على بقاء جناب الدين معصوما وعلى رعاية قيمة ذمة الله وذمة رسوله وتأمل مرة أخرى قوله «**فإنكم أن تُخفِروا ذِممكم وذِمَمَ أصحابِكم أهونُ من أن تُخفِروا ذِمَّةَ الله وذِمَّةَ رسولِه**»

يعني باختصار وتبسيط علينا أن ندرك وأن نبين دائما أننا لسنا الدين أننا مجرد بشر نحاول أن نصيب وأحيانا نخطىء وأن نرحم ديننا من أن تنسب إليه زلاتنا وخطايانا التي لن تنقطع أبدا طالما انطبق علينا وصف (بني آدم)

بني آدم الذين هم -بخلاف من بين الله عصمته من النبيين والمرسلين- فكلهم من الخطائين

كلهم.



١١. أن تغرس الفسيلة..

إن شجر الزيتون لا يثمر إلا بعد سنين طويلة فما لهذا الشيخ الهرم الذي قد بلغ من العمر أرذله يبذل من وقته وما بقي من صحته الواهنة في غرسه؟!

هكذا سأل كسرى نفسه وقد خرج في رحلة من رحلات الصيد التي كان يهواها فلقي في طريقه ذلك الشيخ الطاعن في السن منهمكا في غرس شجرته شجرة لن تثمر إلا بعد أعوام طويلة!!

يغلب على الظن بل يكاد يصل إلى اليقين أن هذا الشيخ الهرم لن يعيش ليدرك ثمارها ويأكل منها أو ينتفع بثمنها

لم يكتف كسرى -عظيم الفرس- بسؤال نفسه ولكنه توجه إلى ذلك الشيخ بالسؤال: يا هذا أنت شيخ هرم والزيتون لا يثمر إلا بعد ثلاثين سنة فلِمَ تغرسه؟!

فكانت الإجابة من الشيخ الحكيم: أيها الملك قد زرع لنا من قبلنا فأكلنا؛ فنحن نزرع لمن بعدنا فيأكل.

أعجب ملك الفرس بإجابة الرجل ومنطقه فصاح راضياً: «زه..»

كلمة قصيرة هي لكنها ذات مدلول معلوم لمن حوله

لقد كانت عادة ملوك الفرس إذا قال أحدهم هذه اللفظة فإن ذلك يعني أنه قد قرر إعطاء ألف دينار لمن قيلت له

أمسك الشيخ الهرم بعطية الملك السخية متبسما ثم زاده من الحكمة فصوصا فقال: أيها الملك إن شجر الزيتون لا يثمر إلا في نحو ثلاثين سنة وها هي هذه الزيتونة قد أثمرت في وقت غراسها.

سُرَّ كسرى لمزيد حصافة الرجل ثم قال: زه فكانت ألف دينار أخرى في يد الشيخ الذكي الذي لم يلبث إلى أن زاده قائلا: أيها الملك إن شجر الزيتون لا يثمر إلا في العام مرة وهذه قد أثمرت في وقت واحد مرتين (يقصد العطيتين)

هنا قال كسرى مسرعا: زه

فأُعطي الرجل ألف دينار ثم ساق الملك جواده مسرعا وقال: إن أطلنا الوقوف عنده نفد ما في خزائننا

قد يقول قائل أن ذلك الشيخ الهرم كان انتهازيا نفعيا استطاع من خلال حكمته وجزالة منطقه أن يحصل مالا وفيرا بـ«الفهلوة»

ربما كان كذلك بالفعل وربما كان غير ذلك

لكن الفكرة الأهم في ذلك الأثر أن هذا الرجل لم يكن يدري حين غرس الزيتون أن ذلك سيكون سببا في تلك الثروة التي هبطت عليه

لم يكن يعلم أن كسرى عظيم الفرس سيمر في تلك الساعة و(يزهزه) حياته بكلمته: «زه» إعجابا بمنطقه وعقليته وسرعة بديهته

لكن الرجل رغم عدم علمه غرس ورغم بعد المدى الزمني وغلبة الظن أنه لن يحصد ولن يعيش ليأكل من تلك الزيتونة فإنه زرعها

والحقيقة أن ما فعله الشيخ الهرم يخالف في ظاهره مطلق الطبع الإنساني الذي تغلب عليه الأنانية وتطفو عليه الأطماع الشخصية فلا يعمل إلا لمصلحته ولا يفكر إلا في آماله التي إذا ما انقطعت انقطع معها عن العمل في التو واللحظة

ولو افترضنا صدق الشيخ في تلك القصة فقد تخطى بنيَّته حواجز الأنانية والتمحور حول الذات وانتقل إلى رحابة نفع الغير وإفادة مجتمع ربما لم يولد أفراده بعد وذلك استمرار الحركة تكافلية سبقه بها أولئك الذين غرسوا الزيتون من قبل

إنها تلك القيمة التي لخصها النبي ﷺ في حديثه المشهور «**إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها**»

حتى في ذلك الظرف الرهيب الذي تيقن فيه أنه لن يأكل منها فإنه مُكلف بالغرس

مُكلف بالنفع المتعدي طالما كان ذلك بيده

ربما كان الأمر على سبيل المبالغة في الحث على غرس الخير فإن زلزلة الساعة شيء عظيم تذهل فيها المرضعة عما أرضعت ومن باب أولى يذهل حامل الفسيلة عن غرسها

لكن المعنى واضح والقيمة ظاهرة

معنى غرس الفسيلة بغض النظر عن إدراك ثمرتها وصنع الخير دون انتظار نتائجه العاجلة

وقيمة تجاوز الآمال الضيقة والأعمار المحدودة ومخالفة طبيعة التمحور حول الذات والتفكير أحيانا في أن هناك شيئا يقال له العطاء

ومن ذلك قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: إن سمعتَ بالدَّجَّالِ قد خرج وأنت على وَدِيَّةٍ تغرِسُها فلا تعجَلْ أن تصلِحَه فإنَّ للنَّاسِ بعد ذلك عيشًا

هناك حياة وإن قصرت والعيش لم ينقطع وإن قلت مدته وانخفضت آماله

وهذا هو المغزى

ليس العيش لأجل نفسك فقط

فإن للناس بعد ذلك عيشا

ولا يدري المرء لعل الله يسوق له ثمرة ذلك العمل من حيث لا يحتسب كما سيقت لزارع الزيتون العجوز

المهم أن يقوم العمل ويقع النفع

المهم أن تُغرس الفسيلة

أصل أثر كسرى رواه المناوي باختصار في فيض القدير وقمت بصياغته أدبيا لتمام الفائدة

١٢. أن تُنزَعَ رؤوس من رمال

لم تكن الثورة الفرنسية في بداياتها تعرف ذلك الشعار المشهور عنها اليوم والذي ينسب لميرابو خطيب تلك الثورة إذ يقول: «**اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس**»

تلك الثورة لم تكن في الأصل ثورة على الكنيسة كمؤسسة أو على المسيحية كدين لكنها كانت ثورة على ممارسات سلطوية متشابكة بين الكنيسة والإقطاع والسلطة الملكية الحاكمة؛ ممارسات أدت إلى تردٍ اقتصادي واجتماعي شديد فكان المطلب الرئيسي لها والذى يدركه الفلاح الفقير الذي كان وقود تلك الثورة هو الخبز والخبز أولا كما أشار لذلك سير. هـربرت جورج ويلز فى كتابه «معالم تاريخ الإنسانية»

لذلك احتاج تلاميذ فولتير وروسو وموليير أن يقوموا بمرحلة وسيطة تتيح لهم غرس تلك الأفكار المتمردة والمعقدة فى عقول أولئك البسطاء من خلال حملات توجيه بسيطة وسهلة الفهم لكنها تغرس في العقل الجمعي الفرنسي صورة مشوهة لرجال الدين،

قاد خطباء الثورة والـممثلون بمسارحهم المتنقلة تلك الحملة لسنوات أحصاها بعض المؤرخين بعشر سنوات والبعض قال أضعاف تلك المدة

أظهروا فيها رجال الدين فى أسوأ وأحط صورة يمكن تخيلها وحرصوا على أن يبدو الممثلون الذين يقومون بأدوارهم بصورة مقززة منفرة بل وفاحشة حتى ذكرت بعض الروايات التاريخية أنه قد مرت على رجال الدين فى فرنسا فترات لم يتمكنوا فيها من ارتداء زيهم المميز والخروج به خشية السخرية والامتهان والاستهزاء والتي كانت ثمارا طبيعية لتلك الجهود الموجهة والمساعي الحثيثة

بذلك زالت أولا قداسة ما أنزل الله بها من سلطان ثم زال الاحترام والقبول ثانيا، ثم زالت المرجعية بالكلية بعد ذلك وصارت الثورة الفرنسية ثورة علمانية شرسة عازلة للدين نفسه وليس فقط لرجاله أو لفكرة الكهنوتية وصكوك الغفران وغيرها من المسائل التي أحسن علمانيو فرنسا استغلالها وصنعوا من خلالها وعبر ذلك المنحنى هزة عقدية زلزالية كانت بمثابة شرارة سرت بعدها العلمانية في ربوع أوروبا والعالم سريان النار في الهشيم

لا شك أن الأحداث المفصلية الكبرى تتبعها إهتزازات شاملة في البنى الفكرية والأيديولوجية والقيمية الخاصة بهذه الشعوب التي مرت بتلك الظروف الاستثنائية

هذا الأمر مطرد متكرر في جل أمم التي حدثت فيها مثلت لك المنحنيات الحادة في مسارها السياسي والاجتماعي

وسواء كانت تلك المنحنيات في شكل ثورات شعبية أو حروب شاملة أو أهلية أو احتلال أو تحرر من احتلال فإن المآل الفكري يتشابه ويشترك في معامل أساسي ألا هو التغيير

التغيير الحاد والجذري والشامل

الشعوب في تلك الظروف الاستثنائية تميل بشكل واضح للتغيير في كل شيء تقريبا وهذا التغيير أحيانا يكون بشكل جمعي موجه أو بشكل متشظٍ عشوائي أو تختلط فيه العشوائية بالتوجيه

والحقيقة أن المقلب لصفحات التاريخ يجد قاعدة مهمة ماثلة أمام عينيه هي أنه ليس ثمة أمة يمكن أن يقال عنها أنها بمعزل عن التغير والتحول والتبدل

كم من الأمم تغيرت عقائدها وأفكارها مرارا وليس مرة واحدة، خصوصا بعد الأحداث الجسام كالثورات والحروب.

وهل عرفت روسيا الشيوعية قبل ما يسمى بالثورة البلشفية؟

وهل كانت فرنسا ليبرالية أو عرفت علمانية شرسة تعلن شنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس قبل الثورة الفرنسية؟

وهل تشبه تركيا أتاتورك وما بعده تركيا الخلافة العثمانية أو تبدو إيران الشاه قريبة أيديولوجيا أو ظاهريا من إيران الخميني وولاية الفقيه؟!

وهل كانت مصر قبل الحقبة الفاطمية وحكم العبيديين مثل مصر

بعدهم؟!

بل هل مصر الخمسينات والستينات تشبه مصر في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من حيث التمسك بالدين وشعائره وسمته وثوابته؟!

إن نظرة سريعة على أدبيات النصف الثاني من القرن الميلادي العشرين ومنتجاته الفكرية والثقافية والفنية تظهر لنا بجلاء تغيرات جذرية في البنية الدينية للأمة المصرية في ذلك الوقت

لست بصدد التناول التفصيلي لتلك المرحلة ومظاهر الانتكاس الديني فيها على الأقل ظاهرا فإنها معروفة ومسجلة ولكنها قد لا تظهر إلا عند المقارنة بالحقبة المحافظة التي سبقتها في أوائل ذلك القرن أو الذي سبقه

وإن المتأمل في الواقع الإسلامي اليوم ليلحظ بسهولة ويسر أن هزة شبيهة وربما أعمق وأخطر تتعرض لها الحالة الدينية المعاصرة على الأقل ظاهرا وإن الاتصال بين الظاهر والباطن أمر لا يجحده بصير ففي الجسد مضغة بصلاحها يصلح وبفسادها يفسد والكتاب يظهر كثيرا من عنوانه

إن من ينكرون اليوم أن هناك مشكلة حقيقية في التزام الناس بتعاليم الدين وتكاليفه وإقبالهم على شعائره وقبولهم لدعوته لهم في رأيي يمارسون نوعا من دس الرؤوس في الرمال ويتجاهلون ظواهر إعلامية وثقافية وحياتية يومية تصرخ فيهم أن انزعوا رؤوسكم من رمالها وانتبهوا

فثمة مشكلة

ولولا أنني لست من محبي الخوض في التفاصيل المحزنة والمشاهد الموجعة على الأقل من باب ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ لذكرت عشرات الشواهد التي تثبت ما ذهبت إليه من أن هناك مشكلة حقيقية تصل أحيانا إلى أسوار العقيدة نفسها لكنني أنأى بالقارىء الكريم أن تتلوث عيناه ويتأذى قلبه بها أو أن تهون المعصية فينظر بعض الخلق بسبب كثرة شيوعها و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾

لذلك أعني في تلك السطور برصد العوامل التي أدت وتؤدي لتلك الهزة الدينية والانتكاسة الالتزامية المعاصرة وتلك هي أولى خطوات الحل ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾

والعوامل التي تتضافر لزلزلة معتقدات الناس وثوابتهم وخلخلة تماسكهم العقدي وتمسكهم العملي كثيرة من ضمنها بلا شك تجفيف منابع التلقي الديني خصوصا من خلال الدعوة العامة والوعظ المطلق الذي رغم رتابته وعدم تجديد آلياته يتم تقييده وحصره وأيضا ارتباط الأعمال الدعوية في أذهان المتلقين بالصراعات المعاصرة وافتراضهم المسبق أنها ليست دعوة خالصة ولكنها لأجل غايات سياسية أو حزبية كل ذلك جنبا إلى جنب مع إسراف في مصادر التلقي المضاد وإطلاق يد الآخر ينفي المقابل ليعبثوا

بأدواتهم من شهوات جاذبة أو شبهات لامعة تلقى بكل حرية

لكنني هنا أريد أن أقف وقفة مع العامل الأكثر تأثيرا في نظري والذي يتم هدمه وإحلال غيره محله بإصرار

إنه عامل القدوة

القدوة التي تنهار في النفوس تدريجيا

ولست أعني بالانهيار هنا انهيار الاستحقاق فإن القدوات ومن يستحقون أن ينظر إليهم الناس بعين التقدير موجودون دائما بفضل الله ولا يزال الخير في الأمة حتى تقوم الساعة لكنني أعني هنا انهيار تلك القدوات في نظر الناس وذلك إما بتشويه متعمد مكذوب أو للأسف بأخطاء حقيقية وقع ويقع فيها البعض بسفه غير مسبوق وعدم تحمل لمسؤولية المكانة وقيمة الاقتداء بهم مما أثر على كل من يحمل السمت نفسه بالتبعية

كثير ممن هم في مقام القدوة يهونون على أنفسهم خطورة هذا العامل بترديد تلك القاعدة العظيمة المنسوبة لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا يعرف الحق بالرجال»

وهي كقاعدة لا غبار عليها

لكن كم من الناس يدركها ويطبقها؟!

كم من الخلق يتعامل على أساسها ولا يفتن بضدها؟!

الحقيقة الواقعية والمشاهدة أن أكثرا لناس يتأثرون وربما يفتنون بأفعال

المتدينين وأخلاقهم وينظرون دوما إلى صنيعهم

لذلك راعى النبي هذا الأمر واعتبره فقال: «**إن منكم لمنفرين**»

ولو كانت القاعدة مطردة تسري على كل الخلائق فلماذا أقر النبي أن هناك من ينفر عن الدين بسبب أهل الدين من المنفرين

نعم هي ليست حجة مبررة لأفعال وتفريط النافر لكنها حجة على المُنَفِّر والمستهين بتلك القيمة

قيمة أنه قدوة

والمتغافل عن كون مقام الرجل الصالح في نفس الإنسان البسيط –حتى ولو كان هذا الإنسان عاصيا– هو مقام كبير ومهم ينبغي أن يصان وأنه إن سقط في نفس الإنسان كانت النتيجة لا تحمد عقباها

قال النبي ﷺ «**أُوصيكَ أن تَستَحي مَن َاللهِ تعالى، كما تَستَحي مِن الرَّجلِ الصَّالِحِ مِن قومِكَ**»

تأمل حرص النبي على رعاية تلك القيمة في نفوس الناس وإقرار أن هناك حياءً من الرجل الصالح ثم تخيل لو انهار ذلك الصالح وسقط في أعينهم سواءً بكسب منه أو بتشويه ممنهج ما أكثره اليوم

النتيجة الحتمية عندئذ أن يهون كل شيء وأي شيء

إذا كان هذا الرجل الصالح المتدين في هكذا وكذا من سيء النعوت وقبيح الخصال فماذا أفعل أنا وأنا الضعيف المسكين الذي لم يدعي يوما أنه

متدين أو شيخ؟!

هؤلاء ثلة من المنافقين يظهرون الصلاح بينما قلوبهم تمتلىء بالفساد والباطل أما أنا فصاحب قلب نظيف إذاً فأنا أفضل أو على الأقل كلنا في (الهوا سوا وما فيش حد أحسن من حد)

ذلك لسان حال كثير ممن يستمرؤون الخطأ تبعا لأخطاء المتدينين أو انهيار صورتهم

وإن العامل النفسي أمر لا يجب تجاهله أو إغفاله

صاحب السمت الملتزم يسبب نقصا عند بعض الناس

هذه حقيقة شرعية وواقعية ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾

حين لا يقدر المفرط على إصلاح حاله أو الإقلاع عن معصيته يكون البديل أن يكون الناس كلهم مثله

بل ربما أسوأ

هم أفاقون، ومنافقون ، وتجار دين، وطلاب دنيا ومنصب وجاه

بينما هو بحاله ومعاصيه لم يفعل شيئا من هذا فهو في نظر نفسه قد ارتاح

لم يعد هناك داع إذا للتغيير والتوبة

وهذا هو محل الخطر

وذاك ما يسعى إليه البعض بكل قوة وتساعدهم فرص ذهبية يعطيهم إياها بعض المتدينين بعدم تحملهم لتلك المسؤولية

تعظم تلك الزلات ويسلط عليها الضوء للغاية

ومن ثم تنهار القدوة

ويخبو في القلب ذلك المثل الذي كان يشكل جذوة من ضياء يتمنى جزء خفي من نفسه و فطرته أن يعم القلب و البدن

وبانهيار تلك القدوة وخبو تلك الجذوة من ضياء التأسي والاستحياء من صالحي القوم تتحول الهزة المجتمعية أو السياسية إلى هزة دينية وترد التزامي وأخلاقي

كل هذا يضاعف من مسؤولية القدوات وأهل الديانة وأصحاب السمت ويجعل من الضروري أن يتم الالتفات إلى خطورة دعوة الحال بالتوازي مع دعوة اللسان والمقال وقبل ذلك كله أن يتم الانتباه للحال والمآل وأن تُنزع رؤوس من رمال



١٣. هات من الآخر

هات من الآخر عايز إية ؟

هذا السؤال هو لسان حال كثير من الناس اليوم، وأحيانا لسان مقالهم، سؤال يسمعه، أو يستشعره كثير من الدعاة إلى الله؛ حال ممارستهم لتلك المهمة الشريفة،وسلوكهم هذا السبيل الكريم ، سبيل سيد ولد آدم عليه السلام والذى أمره ربه ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾، سبيل الذكرى التى تنفع المؤمنين؛ التى أمر بها رب العالمين فقال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا السبيل صار اليوم مسدودا بحاجز منيع يمثله هذا السؤال الحالى، أو المقالى: «عايز إيه؟ طلباتك إيه من الآخر؟»

سؤال تنطق به نظرات الشك، والتربص،وأمارات الريبة التى تبدو على وجه كثير ممن تُوجه إليهم هذه الذكرى، أو يكونون محلا لتلك الدعوة ، والبلاغ

ربما تُترجم النظرات،والإشارات لهذا السؤال الصريح ، الذى يفصح عن شبهة خطيرة استقرت فى قلوب البعض،

شبهة ضرورة وجود غاية مادية، أو دنيوية من وراء الدعوة ، أو

الذكرى التى تنفع المؤمنين، وكأن الداعى، أو المُذكر، أو الناصح الأمين الذى يطبق القاعدة النبوية «الدين النصيحة»؛ لا بد أن تكون له «مصلحة» عاجلة من خلف تلك التذكرة التى ما هى إلا مقدمة لطلباته التى ستأتى فى «الآخر».

البعض يفترض أنك حين تكلمه فى الدين مذكرًا إياه بمولاه وناصحًا له بتقواه ؛ فإنك تريد بذلك صوته فى انتخابات، أو تريد استقطابه لحزبك، أو ضمه لجماعتك هذا بافتراض أنك منتم لجماعة أساسًا!!

والبعض يظن بك أنك تريد مالا، أو تبرعًا ستزعم أنك ستعطيه لفقراء، أو أيتام؛ ثم تستولى عليه لأنك طبعًا من تجار الدين، الذين يحذره منهم النخبويون.

وربما يعتقد أنك تقوم بعمل «بروباجندا» أو «شو»؛ لتظهر به أن تيارك ناشط، وقريب من الناس.

وقد يتوجس خيفة حين تتقدم إليه بدعوتك؛ ظنًا منه أنك ستقوم بتطبيق الحد عليه؛ لأنك من الجماعات التى خبروه أنها تفعل ذلك بالمارة.

المهم أنه سيقدم هذا الظن؛ أنك بالتأكيد تريد منه شيئًا!

لن أدفن رأسى فى الرمال، أو أقول إن مسئولية جبال الجليد التى تقف اليوم حاجزا بين الداعى، والمدعو سببها فقط الإعلام، أو الدعايا المضادة، أو الشائعات وهى بلا شك تقوم بدور أساسي فى ذلك، لكن سأعترف أن

من الإسلاميين من تسبب فى هذا ببعض الأفعال؛ التى أعاقت الدعوة قبل أن تسىء إلى أصحابها.

وأيضا لن أتغافل عن الظروف التى تمر بها البلاد، من انتخابات متوالية، وموجة سياسية عارمة تجتاح الأمة، أدت إلى علو جرعة التعاطى السياسى بشكل رهيب لدى جميع طوائف الشعب تقريبا، وتسببت فى انشغال العقل الجمعى دائما بالخيارات السياسية، ودوران جلال أحاديث، والحوارات، والأفكار حولها مما يجعل تصور وجود دعوة محضة؛ مجردة نصوح، أمرا مستبعد أى كثير من الناس!

لكن لا بد من وقفة،

لا بد أن يذاب هذا الجليد، وأن يظهر من جديد مفهوم «الدعوة المرسلة»، دعوة الأنبياء، والمرسلين سلام الله عليهم أجمعين، الدعوة التى شعارها ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾، وعنوانها ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ودليل مصداقيتها الذى صاحبه مؤمن آل ياسين ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

دعوة لا يريد أصحابها شيئا من المخلوقين؛ لا مالاً، ولا شرفًا، ولا منصبًا، ولا مقامًا، ولا حتى كثرة أتباع ، هكذا كان حال القدوات من الأنبياء؛لدرجة أن يأتى النبى يوم القيامة، ومعه الرجل، أو الرجلان ، ويأتى وليسمعه أحد ،نوح (عليه السلام) ظل يدعو ألف سنة إلا خمسين عامًا ؛وما

آمن معه إلا قليل، ورغم ذلك ما كل، ولا مل، ولا ذل،

بل استمر فى دعوته المرسلة لا يريد جزاءً ولا شكورًا.

وهذا ما ينبغى أن يُؤصل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾،

طائفة لا هم لها ؛ إلا أن تسلك سبيل النبى على بصيرة، وأنت كون من أحسن الناس قولاً ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾

طائفة لا ترجو ؛إلا أن تدل الناس على الخير، ولا تهتم؛ إلا بأن تكون مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر، ونصب أعينها قول النبى لابن عمه و زوج ابنته رضى الله عنه «**والله لأن يهدي الله بك رجلا واحد اخير لك من أن يكون لك حمر النعم**»

لا بد أن توجد هذه الطائفة ،وأن تمارس دورها دون هذه الفرضيات المسبقة من المتلقى وأن يظل الاعتبار قائما بأن السؤال عن البواعث والدوافع لتلك الدعوة ليس له إلا إجابة واحدة

طاعة لله ، وطمعًا فى رضاه..

❊ ❊ ❊

١٤. فلان التزم !!

بجد ؟؟ ما شاء الله

عقبالنا ربنا يهدينا جميعا

كان هذا هو (السيناريو) المعتاد الذى كنا نسمعه منذ سنوات حينما كان أحد أصدقائنا أو زملائنا يستقيم أو يهتدى ويتوب إلى الله

كانت أياما جميلة...

لم يكن التنازع والاحتقان والمراء على أشده كما هو الآن

فقط وببساطة.... التزم

كانت كلمة تعبر عن أشياء كثيرة دون كلام تفصيلى معقد وكان لها وقع على القلوب وانطباع فى العقول سواء عند من رزقه الله بها أو عند من لم يسلك بعد سبيلها.

عند من رُزق بها كنت تجدها كثيرا على لسانه تلقائيا ودون تكلف معبرة عن نقطة فاصلة فى حياته يفرق بها بين مرحلتين يسمى الأولى ما قبل الالتزام والأخرى ما بعده

و كذلك عند من لم يلتزم بعد تجد الكلمة لها انطباع يعنى أن صديقه الذى التزم صارت له ثوابت وأخلاقيات وعادات مختلفة وصارت هناك

أنشطة وسلوكيات لن يشاركه فيها بعد أن وُصف بهذا الوصف ورضي لنفسه هذا السمت واختار هذا الاختيار وأصبح... ملتزما

البعض كان يقصر المصطلح على الأمور الظاهرية فيعبر عن الالتزام من منطلق التمسك بالهدى الظاهر وحسب فإذا أتيت إلى سلوكه وإلى عمله وجدت ذلك اهتزازا شديدا فى معايير الالتزام

بينما ألغى البعض تماما قيمة التمسك بالهدى الظاهر وصار الالتزام لديهم قاصرا على القلوب ولا يظهر على واقع الشخص أبدا

و الحقيقة أن السؤال الذى ينبغى أن يطرح نفسه الآن قبل أن نسأل أين ذهب الالتزام هو «ما معنى الالتزام؟؟»

نعم إن الأمور لم تعد بالبساطة السابقة حين كان الأمر مفهوما وسهلا فدخلت إليه الأبعاد السياسية والنزاعات الأيديولوجية والصراعات الحزبية وقدم سوء الظن والاستقطاب الحاد على المعانى الإيمانية الواضحة التى ينبغى لكل مسلم أن يسعى للتمسك بها بصرف النظر عن الاصطلاحات والخيارات والممارسات

لكن سواء استعمل اللفظ الحديث – ملتزم – أو الاصطلاحات الأصلية كمستقيم أو تائب أو متسنن أو ناسك أو صالح فإنه لا يختلف مسلمان على وجوب السعى لتلك المعانى الرفيعة وتلك الواجبات الشرعية من توبة وهداية واستقامة وتعظيم لشرع الله وأمره ونهيه وموالاة له

ولأوليائه وبراءة من أعدائه واتباع لهدى خير خلقه ﷺ

إن أردنا أن نعرف الالتزام ببساطة لقلنا أنه استجابة لأمر الله جل وعلا الشامل والمحكم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ ﴾ والدخول فى السلم كافة كما قال جمهور المفسرين هو الدخول فى شعائر الإسلام كافة ودون تفريق

و هذا يشمل الظاهر والباطن بلا إفراط ولا تفريط

و كما أن أصحاب مبدأ «ربك رب قلوب» سيبادرون بقول الرسول «**التقوى ها هنا**» وأشار لصدره

أو قوله «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»

فسيرد عليهم بقوله ﷺ: «**إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**» فأقر هنا بأن صلاح الباطن والظاهر مترابطان لا ينبغى فصلهما وأن أحدهما نتيجة للآخر أو ملازم له

و الالتزام صبغة كاملة كما فى قوله تعالى ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ ﴾ والصبغة لا تصبغ الداخل فقط وإنما تتغلغل لتشمل ظاهر الثوب وباطنه

أما عدم نظر الله للصور والأجسام يوم القيامة فهو من باب عدم أهمية المظهر من حيث الفخامة والجمال لكنه عاد وقال ينظر إلى أعمالكم ولا شك

أن الأعمال منها الظاهر والباطن والأدلة على ذلك من القرآن والسنة لا تحصى

الأمر إذن لا يحتاج إلى هذا التنازع والخلاف بل ينبغى أن ينظر للإسلام بشموله وأن يدخل فيه كآفة كما سبق وبينا

يتبادر هنا سؤال مهم لابد من إجابته لتوضيح جزئية مؤثرة في حقيقة الالتزام وتعريفه

السؤال هو: هل يعني هذا أن الملتزم معصوم لا يخطىء ؟؟

والجواب: لا

قطعا لا يوجد تلازم بين الاستقامة والتمسك بالدين وبين العصمة التي هي أمر قاصر على الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بين عموم المخلوقين خطاؤن يعصون ويزلون ويذنبون

لكن الفارق كبير بين الذنب الذى يدرك صاحبه أنه ذنب ويسعى للإقلاع والتوبة عنه وبين المجاهر المُصر عليه الذى لا يرى أو يرى من حوله بأسا فيما فعل ويفعل مهما بلغت درجة فجوره

المجاهر بذنبه مشكلته مزدوجة فهو بخلاف الذنب الأصلى ينشر معصيته بين الناس ويجعل أعينهم وآذانهم تألفها فيكون كمن يشيع الفاحشة فى المؤمنين

و لقد لخص النبى صفة المؤمن تجاه الذنب الذى ضعف أمامه واعتاده

الفينة بعد الفينة

قد لخص تلك الصفات فى جملة جامعة رائعة جمعت صفات أربعة تتوازن سويا فقال «إن المؤمن خلق مفتنا توابا نسيا إذا ذكر تذكر»

فمفتنا تعادلها توابا فهو عرضة للفتن وقد يقع فيها لكنه يسارع بالتوبة

وهو نسيٌّ يقع فى الغفلة ويعتريه النسيان كما اعترى أباه الأول

لكنه في النهاية يقبل التذكرة والنصح

ويتذكر

الالتزام ببساطة هو عبارة عن قرار،

نقطة فصل،

منحنى تحول

ينتقل الإنسان بعده إلى مرحلة جديدة مختلفة تماما الأصل فيها عنده أن يطيع الله ورسوله فيما أمر وينتهى عما نهى والاستثناء لديه أن يعصى أو يضعف ثم لا يلبث أن يعود مرة أخرى لأنه ببساطة....... ملتزم

❊ ❊ ❊

١٥. ملتزم ولكن

عودا لتلك الكلمة العتيقة

تلك الكلمة التي تكاد تندثر وتغيب في ركام الصراع وتغرق بين أمواج التصنيف والأيديولوجيا والتحزب

كلمة ملتزم

تحدثت من قبل في مقال «معنى الالتزام» عن ذلك الواقع القديم الذي كانت تحمله تلك الكلمة

وقع له مدلولاته في العقل ولطالما تردد صداه في أرجاء القلب

ملتزم

لم يكن شرطا أن تفصل حينئذ ملتزما بماذا ولا مع من أو ماذا

يكفيك ان تقول ملتزم لتتبادر إلى الذهن مجموعة من المفاهيم والانطباعات عن الشخص محل الوصف والذي اتخذ ذلك القرار والتزم

كثيرون تبقت لديهم صور باهتة لتلك الانطباعات إلا أن إطلاق الكلمة لم يعد بسيطا سلسا كما كان في يوم ما

لقد صار الأمر معقدا وأصبح من الضرورة أن تلحق كلمة ملتزم عند

وصف الكثيرين بكلمة أخرى من ثلاثة أحرف

كلمة «لكن»

صار لدينا ملتزم لكن مغتاب أكال للحوم إخوانه قتات يمشي بالنميمة بين الناس ويغرس البغضاء والعداوة بين المتآخين

وأضحى لدينا ملتزم لكن بذيء فاحش اللسان إباحي اللفظ دنىء القول

وأصبح عندنا ملتزم لكن كذاب وملتزم لكن خائن وملتزم لكن خسيس يقطر حاله بالنذالة وملتزم لكن شحيح على الخير وملتزم لكن نسي معنى التثبت وملتزم لكن كاره حاقد قاس القلب نسي معنى الأخوة ولكن ولكن ولكن ولكن....

أشعر بعد ما سطرته بجوار كلمة «لكن» أنني قد أخطأت في اختيار الكلمة التي بجوارها من الناحية الأخرى

أشعر أنني أشاركه الجريمة حين أسميه ملتزما حتى لو شفعت ذلك بكلمة «لكن»

حين أسترجع ذكريات ووقع تلك الكلمة وسمت وحال من انتسبوا يوما إليها ووصفوا بها ثم أضعه بجوار تلك الكلمات التي تلي «لكن» أشعر أنه قد حان الوقت لكي يصاغ مصطلح جديد ومختلف يعبر به عن تلك الصور المشوهة ويتصف بها أصحاب تلك المزاوجة الممسوخة التي تكاد

تطمس المعنى الجميل لذلك الوصف وتشوه تلك الصورة

كتبت من قبل ان الالتزام لا يعني العصمة ولا يرادف التنزه الكامل عن الخطأ

بس مش كدة

ليس لهذه الدرجة

ولو حدث ووقع الملتزم في بعض ما قلته مما سبق فإن بقاء الوصف يستلزم المسارعة إلى ترك التلبس بتلك المصائب

لكن أن يستمرىء الملتزم البذاءة وأن يطبع حياته مع الخسة وأن يتعايش مع النميمة والكذب والقسوة فكيف يظل الوصف

كيف يظل ملتزما

عموما وحتى إيجاد مصطلح بديل يعبر عن تلك الازدواجية الممسوخة أقترح أن تزاد على تلك النماذج العجيبة تلك الكلمة وليصير لقبهم حتى حين

ملتزمين ولكن...



١٦.الدخان الأزرق

تصاعدت سحب الدخان الأزرق باحثة عن منفذ ينجيها من جو الغرفة الخانق الذي لم تفلح الضحكات الرقيعة الممزوجة بحشرجات السعال في تبديد تلك الكآبة التي تخيم عليه وتتسرب دائما في نهاية جلسة (الأنس) إلى نفسه ثم سرعان ما تتحول إلى غصة ثقيلة تكاد تكتم على أنفاسه بمجرد أن يبدأ أثر (الانتشاء) في الزوال

بعينين قانيتين بلون الدم قلب بصره الدامع من الضحك في سحائب الدخان المتصاعد وقد شكل في سقف الغرفة ظلالا غير منتظمة

شرد بذهنه لحظات متأملا تلك الظلال المتراقصة

لم يضحك مع الرفاق لتلك النكتة الأخيرة التي لم تستطع العبور من أذنيه إلى عقل سبح في ذكريات تطوف بين أمواج الدخان الأزرق

يبدو أنه لم يعد معهم

إن تلك الدمعة الساخنة التي وجدت طريقها إلى وجنته ليست شبيهة في حرارتها بدمعات القهقهات الماجنة

وكيف لا تنساب تلك الدمعة النادمة من عين تبصر من خلف سحائب الذكريات الشاردة مكانا بعيدا طالما بللت أرضه دمعات شبيهة سالت يوما

من تلك العين

إنها تبصر مكانا رحبا هادئا ما أشد اختلافه عن تلك الغرفة الغائمة

مكانا نقيا طاهرا طالما قضى بين جدرانه أصفى الساعات وعرف بين أعمدته أنقى صحبة

مكانا لطالما عطر أجواءه بصوته الرخيم يتلوا آيات الذكر الحكيم آناء الليل وأطراف النهار

كيف استطاع أن يصل إلى هنا؟!

كيف وقد ذاق من قبل؟!

ومن ذاق عرف

ومن عرف اغترف

ولطالما اغترف

لطالما نهل من نبع الصفاء الذي كان يفيض من ذلك المكان

لماذا استبدله؟!

وبماذا؟!

بهذا؟!

بالذي هو أدنى؟!

بل هو أحقر وأقذر

لكن الأمر لم يحدث فجأة

إنه يتذكر جيدا كيف فرط في أول صلاة جماعة

وكيف هانت عليه بعد ذلك صلوات الجماعة

وياليت الأمر اقتصر على ذلك

يا ليته كان ليقف عند هذا الحد

إنه هو الذي كان يحرص ألا تفوته تكبيرة إحرام في الصف الأول

لا يتذكر اليوم متى آخر مرة كبر فيها وركع وسجد

الأمر لم يحدث فجأة

لقد كان تدريجيا بطيئا

اليوم التكبيرة

وغدا صلاة الجماعة نفسها

وبعد غد نظر محرم

وبعده فحش وبذاءة

ثم نظرة فابتسامة

ثم سيجارة عادية تحولت بعد حين إلى أخرى ليست بعادية تشبه تلك التي يمسك بها بين أصابعه الآن وينبعث منها هذا الدخان...

الأزرق

ثم تفريط كامل

وها هو اليوم هنا

هاهو يطالع تلك الوجوه الكالحة التي لم تفلح الضحكات الماجنة في تقليل كآبتها وبؤسها

لقد انسلخ تماما عما كان فيه

تماما

إنه لا يكاد يصدق ما حدث له

حاول كثيرا خداع نفسه وتبرير انفلاته التدريجي بأطروحات وشبهات وأفكار

حاول كثيرا إقناع نفسه أن هذا الذي كان فيه تطرف وتزمت لا علاقة له بصحيح الدين وأن عليه أن يكون أكثر تحررا وانطلاقا مما صوروه له على أنه قيود

لقد حاول

لكنه أبدا لم يقتنع

كان دائما هناك صوت يتصاعد خافتا من أغوار سحيقة في نفسه يخبره أنه يخدع نفسه

وها قد آل به الحال إلى هنا

وها هو يرنو بذهنه الشارد تجاه هذا المكان الذي أصبح أبعد ما يكون عنه

ياااااه

كم يشتاق إلى حلقة التجويد بعد صلاة الفجر وجلسات تحفيظ الأطفال بعد العصر

كم تهفو روحه لتلك الوجوه الطيبة التي لم يجتمع معها يوما إلا على طاعة وذكر وتلاوة

كم يحتاج إلى أن تعانق جبهته أرض هذا المكان وينطلق لسانه بخاشع المناجاة مقترنا بصادق الدمعات

كم يحتاج إلى المسجد..

كم يشتاق إلى طهارته وكم يرنو بروحه إلى رحاب طاعته وصالح صحبته

وكم

وكم

- إلى أين؟!

امكث

سنرسل في طلب المزيد

- من أنتم يا رفاق؟!

أنا لا أعرفكم

لا أنتمي إليكم

لا أنتمي إلى هذا المكان

لم أخلق لهذا

ولا ينبغي ان أكون هنا

إن مكاني هنالك

إلى حيث انتمي

لا مزيد من تضييع الوقت

لا مزيد من التسويف وخداع النفس

أشعر به يناديني

يذكرني كما أتذكر جدرانه وأركانه ومصاحفه المتراصة بين أرجائه الهادئة التي تنبع منها أنوار وسكينة

إني قادم إليك

لا جفاء ولا هجران بعد اليوم

قادم إليك

إليك يا بيت ربي

وإليك يا ربي



١٧. مخاضة

مرت سيارة مسرعة على مخاضة من الوحل بجانب الطريق فتطاير الماء المختلط بالطين والفضلات ليصيب المارة الذين قُدر لهم أن يمروا بجوار تلك المخاضة لحظة عبور السيارة

و بينما يتأففون لما أصاب ثيابهم من آثار ذلك الوحل ويحاولون نفض تلك الآثار عنها إذا ببعضهم ينظرون بحزن ممتزج بسخط وغضب إلى أثوابهم التي كانت نظيفة فاخرة وقد تلطخت واتسخت

و بدلا من أن ينشغلوا بتنظيفها وإصلاح ما ألمَّ بها إذا بهم يصرخون قائلين: لا فائدة!!

قد فسد الثوب ولا قيمة لنفض الطين عنه

الغريب أنهم بعد ذلك اتجهوا والأنظار ترقبهم بدهشة مُنكِرَة إلى بركة الماء والطين ليقوموا بأعجب فعل يمكن توقعه فى تلك اللحظة

لقد قفزوا إلى داخل بركة الوحل ومرغوا أنفسهم في الطين مرددين منطقهم العقيم: لم يعد شيء يفرق قد فسد الثوب ولا قيمة للحفاظ على ما تبقى منه نظيفا

(كدة كدة بايظة)

فلنتمرغ في الوحل إذاً ولنودع كل ما تبقى لنا من نقاء ونظافة وطهر يختفون تدريجيا خلف طبقة من طينها وقذرها

طبقة سميكة تتجمع على أجسادهم المتقلبة المتمرغة التي تتحول بسرعة إلى نفس الشكل واللون وتكاد تختفي تماما فيها وتصير جزءا لا يتجزأ منها

جزءاً من تلك المخاضة

للأسف كثير من الناس يتعاملون اليوم بنفس المنطق المعوج وكأنما ينبغى إذا لم يدرك جل الشىء أن يترك كله وقد سيطرت عليهم قاعدة إما الكمال وإلا فلا

يتعاملون بهذا المنطق على مختلف الأصعدة

فإذا عصوا الله معصية تمادوا فى عصيانه ولسان حالهم كما يقولون بالعامية «ما هى بايظة بايظة»

و إذا قصروا فى طاعة تركوها وباقى الطاعات وكأنما قد سد باب الإصلاح

و إذا فشلوا فى تحقيق هدف قعدوا وأحبطوا وكأن الحياة قد انتهت ولم يعد لوجودهم معنى أو غاية

و هكذا دواليك

اختاروا أن يتمرغوا فى الوحل ويمزقوا ما تبقى من ثروتهم بدلا من أن

ينظفوا ما اتسخ ويرتقوا ما مزع وينموا ويستثمروا ما بقى لهم

تناسوا ما علمهم ربهم من أنه ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

و أن فرصة الإصلاح والتصحيح قائمة ما لم يغرغر المرء وتقم قيامته

فما أشد حماقتهم وما أقل حيلتهم وما أهونهم على أنفسهم وهم يقبلون

كونهم جزءا منها

من المخاضة



١٨. كلب يلهث

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾

مكانة عظيمة هي ووصف مهيب وتزكية ربانية لا تدانيها تزكية مخلوق أو مدح فانٍ

بذلك الوصف وتلك التزكية افتتح الله تلك القصة المهمة من قصص القرآن والتي هي رغم قصرها تحمل من المعاني والفوائد الشيء الكثير

الوصف والتزكية قيل أنهما في حق عالم كان مع القوم الجبارين الذين سكنوا الأرض المقدسة في الفترة التي أُمر فيها بنو إسرائيل بدخولها ولقد روي أن صاحب الوصف كان من العلماء الربانيين أطلعه الله على اسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى

لكن ثمة كلمات قرآنية معدودة كانت تفصل بين هذا الوصف الشريف وتلك التزكية العظيمة وبين النقيض تماما فبعد أن كان الوصف شريفا والتزكية ظاهرة تحول كل ذلك إلى وصف آخر وضيع وصار مثله كمثل كلب يسيل اللعاب النجس من بين شدقيه

وبعد أن كان كريما عالي الدرجات بعلمه صارت الغواية نعته والانسلاخ حاله والخزي مآله

ذلك لأنه غيَّر وبدَّل ولم يرع للنعمة حقها ولم يعرف للعلم مقامه ولا للآيات التي في صدره قدرها ففرط فيها واختار أن يخلد إلى الأرض ويتقلب في ترابها الحقير ويلهث خلف شهواتها الدنيئة

ورد عن بن عباس رضي الله عنهما أن هذا الرجل المسمى بـ«بلعام بن باعوراء» قد أغراه قومه ليستعمل علمه الذي آتاه الله إياه في صدّ موسى وقومه عن دخول الأرض المقدسة

لكن الرجل عالم ومدرك بوضوح أن موسى عليه السلام نبي مكلم وأنه على الحق

إلا إنه وعلى الرغم من كل ذلك سقط في الفخ وضعف أمام إغراءات الجبارين وقرر أن يستعمل علمه في صدِّ الحق والترسيخ للباطل بل والأدهى أنه أقدم على دعاء الله بأن ينهزم نبيه وأتباعه وأن يولوا الأدبار أمام القوم الجبارين

ولقد ورد في الأثر أنه فشل في مسعاه وكلما حاول أن يدعو على موسى صرف الله لسانه فدعا لموسى وقومه وكلما دعا لقومه الجبارين صرف الله لسانه فدعا على قومه حتى تدلى لسانه كالكلب اللاهث

لكنه لم يستسلم ولجأ إلى الحيلة والخديعة واستعمل علمه ومكره فقال لقومه أطلقوا عليهم نساءكم مزينات يروادن جند موسى عن أنفسهم فلئن فشت الفاحشة في جيش لم ينصرهم الله

وقد كان..

وبالفعل وقع كثير من بني إسرائيل في المحظور واستحبوا شهوة الدنيا العاجلة وأبوا أن يطيعوا أمر ربهم ونبيهم ثم قالوا كلمتهم الشهيرة: إنا هاهنا قاعدون فكتب عليهم التيه كما في القصة المعروفة التي ليست هي موضوعنا

لكن ما يعنيني في تلك السطور هو ذلك العالم الفاسد الذي كان من الممكن أن يظل من أرفع الناس شأنا فإن الله يرفع بآياته أقواما ويضع بها آخرين كما ثبت عن الصادق الأمين لكنه أبى إلا التدني والتقلب في دركات الوحل وانسلخ...

والانسلاخ مصطلح يعبر به عادة عن مفارقة الجلد للحم لكنه ورد هنا في معرض الحديث عن مفارقة العبد لآيات ربه

وكأن في ذلك إشارة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين المرء وآيات ربه التي أوتيها

علاقة قرب واتصال وثيق وتماسك شديد كما يكون الاتصال بين الجلد واللحم ومن ذلك يتبين معنى قولهم: «دينك دينك لحمك دمك»

ويعبر بكلمة السلخ كذلك عن استلال الليل من النهار ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ وهي حركة بطيئة تدريجية كما أن انسلاخ الجلد عن اللحم يكون تدريجيا بطيئا

وكذلك انتكاس المرء عن آيات ربه لا يحدث فجأة ولكنه ينسلخ عنها رويدا رويدا دون أن يشعر فيتساهل تارة ويتميع تارة أخرى ويقصر مرة ثم يتبعها مرات حتى يستمرىء الاجتراء ويتهاون في شأن الحرمات ولئن لم يستنقذ نفسه ويمن عليه ربه بيقظة تنبهه أو موعظة يستفيق بها فقد يتم الانسلاخ ويكتمل الانتكاس وحينئذ يجد عدوه في انتظاره ليجهز عليه ويكون من أهل قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾

إنه مثال من أخطر أمثلة القرآن الكريم

ذلك بأن الجاهل قد يعذر بجهله إن زل أو ضل

لكن أن يتخلى العالم عما أوتي من الفضل ويتنكر لما حباه به ربه من العلم فتلك هي المصيبة التي يتناسب معها ثقل المثال والتشبيه

إن عظم المكانة والدرجة يستلزم بالضرورة تعاظم المسؤولية والتكليف ولئن تخلي العالم عن تلك المسؤولية فمن يقوم بها إذن

لكن كيف وإن لم يتخل فقط بل ضل وأضل غيره واستعمل علمه في تزيين الباطل وترسيخ أركانه؟!

وسواء صح الأثر في أن هذه الآيات من سورة الأعراف في شأن «بلعام» ذلك العالم المنتكس تحديدا أو أنها على إطلاقها فإنها تظل نموذجا لكل من آتاه الله علما وأكرمه بآياته فنأى عنها وأعرض واستبدلها بعرض زائل فصار في النهاية مجرد

كلب يلهث....

١٩. إشمعنى؟!

«اشمعنى عمر؟ طب ما تشوف هو عمل إيه قبل كدة»

جملة ترد بها طفلتي الصغيرة كلما عاتبتها أو نهيتها عن خطأ ما قد اقترفته أو لُمتها على أمر قد قصرت فيه

هكذا تتنصل من الخطأ بتلك النبرة الطفولية المتباكية والقائمة على منطق (اشمعنى!!)

وكذلك يفعل أخوها إذا حدث العكس وتم لومه على خطأ اقترفه هو الآخر فيسارع لاستدعاء المقارنة وتصدير نفس المنطق

منطق: إشمعنى

ولعل ذلك المنطق (العيالي) يُقبل من طفل صغير أو من شخص غير مكتمل النضج العقلي أو الفكري

لكن أن يستحضر ذلك المنطق من قبل أناس يفترض أنهم كبار السن والمقام راجحو العقل والتفكير فذلك بلا شك أمر يدعو للاندهاش والأسف

أما الاندهاش فهو لدرجة سذاجة وسفه هذا المنطق الذي يُستدعى عند كل نكير ويُصَدَّر في وجه كل من يرفض أو يستبشع خطئا أو تقصيرا

وأما الأسف فلتلاشي الشعور بالأسف، واختفاء ثقافة الاعتذار وتحمل المسؤولية لدي أولئك (المستعيلين) ومن سار على دربهم واستعمل منطقهم

منطق المقارنة الدائمة بالغير واستدعاء أخطائهم والتنقيب عن زلاتهم في دفاتر التاريخ القريب أو البعيد

منطق: (اشمعنى)

وكأن كون الآخرين سيئين يتيح للمرء أن يكون سيئا وكأن أخطائهم أو حتى جرائمهم تبيح له أن يُجرم أو يتهاون في حق من حقوق الله أو حقوق عباده وكأن معصية الغير ترخص للجميع أن يفعلوا المثل بمنطق آخر بئيس

منطق: ما هي بايظة بايظة هي يعني جت عليا أنا؟؟!

يعني إنت مش شايف فلان وعلان وترتان بيهببوا إيه؟؟!

هكذا يستباح أي شيء وكل شيء

وطالما كانت أخطاء الآخرين وسوءاتهم هي دوما مبررات أفعالك ومسوغات مواقفك فاعلم أنك مفلس

نعم هذه هي الحقيقة المرة والمؤسفة وربما المفاجأة

حقيقة تقطع بأنه لا يسأل عن جرمه إلا الذي أجرم ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وبالتالي فلا حجة في الدنيا إلا بكسب المرء ومسؤولية الخطأ تقع على من اقترفه حتى لو أخطأ جميع من حوله معه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾

أعلم أنه قد يتبادر إلى ذهنك عزيزي القارئ أن هذه أمور بديهية يعرفها الجميع ودعني أوافقك جدلا أنها أمور بديهية وأنني أنا وأنت لا نقع في نقيضها ثم اسمح لي أن أسألك

ألم تشهد مؤخرا أي حوار حول أخطاء طرف من أطراف الصراع السياسي أو الأيديولوجي فوجدت الحوار قد تحول فجأة بقدرة قادر إلى الحديث عن أخطاء الطرف الآخر كتبرير لتلك الأخطاء

ألم تفاجأ يوما بمخالفك يبرر أخطاءه أو خطايا فصيله بجرائم الفصيل الآخر

ألم تر قط استدعاء منطق المقارنات في أي نقاش لا علاقة له بالمقارنات

تلك هي المشكلة يا عزيزي وهذا هو المنطق الذي أزعم أننا جميعا نستعمله ونقع فيه بغير قصد وأحيانا بقصد ..

منطق: اشمعنى فلان؟

منطق العيال والمتهربين من المسؤولية ومنطق المفلسين الذي لن ينفع يوم العرض والسؤال

يوم تقف بين يدي الله فلا تُسأل إلا عن نفسك ولا تحاسب إلا على

كسبك فربك يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ويقول ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ويقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

فانتبه الآن وأعد جوابا ليس فيه: أصل «فُلان» كان سيئا و«علّان» كان مجرما و«ترتان» قال وفعل وسوى وزاد وعاد

أعد جوابا عنك أنت وأعلم أنك «لا تُكلف إلا نفسك»

فلا تقل: إشمعنى



٢٠.عفوا لقد نفذ رصيدكم..

كلمة يعرفها جيدا أصحاب الهواتف المحمولة التى تعمل بنظام (كروت الشحن)

قد تسمع هذه الكلمة وانت الى جوار محل الكروت فتستطيع ان تشترى كارت أو حتى تشحن (على الطاير)

أو قد يكون معك كارت شحن احتياطى

و لعلك تستعمل خدمة (سلفنى شكرا)

لكن تأتى أحيانا لحظات حرجة ربما تكون قد استنفذت كل ذلك وتحتاج الى رصيد بشدة لتقوم ولو بمكالمة واحدة

فلا تجد

تخيل لو سمعت هذه الكلمة لا قدر الله فى حادثة فى طريق مقفر وتريد أن تتصل بمن يغيثك

أو فى مصعد معطل تريد أن تتصل بأحد ليفتحه لك

وقعها سيكون أصعب أليس كذلك ؟؟!!

تحتاج إلى مكالمة إنقاذ فلا تجد إلا هذه الكلمة تقرع أذنيك

عفوا لقد نفذ رصيدكم...

مثل ذلك رصيدك من الحسنات والأعمال الصالحات!!

أنت الآن فى الدنيا وتستطيع أن تتزود أو كما يقولون بلغة المحمول: (تشحن)

أما غدا فهى اللحظات الحرجة

لحظات الحساب والميزان

ذلك المخزون من الحسنات هو رصيدك الحقيقى فى تلك اللحظات التى لا تزود فيها وما سيتبقى لك منه بعد اختزال «الخصومات» و«الغرامات» من مبطلات ومحبطات هو رأس مالك الحقيقى الذى ينجيك برحمة من الله وكرم يربيه ويضاعفه

للأسف هناك من لن يكفيه رصيده فى تلك اللحظة

حينئذ أعيذك ونفسى أن نكون ممن يقولون ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

فاليوم عمل بلا حساب وغدا حساب بلا عمل

فلنتزود فإن خير الزاد التقوى

ذاك هو الرصيد الحقيقى الذى نسأل الله ألا ينفذ وقت لا ينفع الندم

أما إن كنت من أصحاب الخط (الفاتورة) فلذلك حديث آخر إن شاء الله

٢١. هذه فتنة . .

هذه فتنة

ألا فاعتزلوها

لسان حال البعض كلما سمعوا كلمة فتنة

وما قالوا بذلك إلا لأن أذهانهم انصرفت مباشرة إلى نوع معين ووحيد من الفتنة

التباس الحق والباطل واختلاطهما

وهذا بلا شك نوع من الفتنة

وهي فتنة حين تشتد يتوارى معها سطوع الحق ويغيب عن البعض نوره فلا يتبينوه ومن ثم قد تجوز في حقهم العزلة حتى يتبينوا الخيط الأبيض من الأسود ويبصروا مواضع أقدامهم

لكن هل هذه فقط هي الفتنة

هل هذا هو النوع الوحيد والمعنى الفريد

الجواب: لا

ليس هذا معنى الفتنة وحسب

إنما الفتنة اختبار وامتحان وابتلاء

الفتنة سراء وضراء

نعيم وضيم

أمر ونهي

شهوة وشبهة

مال وولد

الفتنة تهديد وزلزلة وبارقة سيوف طواغيت على رؤوس الثابتين

الفتنة صقل وتمييز

فرز وتمحيص

تربية وتوجيه

والكل سيفتن لا محالة ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

تأمل الكلمة: الناس

فقط إذا أعلنوا الإيمان أتى الامتحان

والامتحان طويل ينتهي بنهاية فتنة المحيا ليختم بفتنة الممات

هل يعقل أن تكون إجابة كل أسئلة امتحان الفتنة تتلخص في أمر واحد فكلما واجه المرء سؤالا ألقاه في ورقة الإجابة قائلا: هذه فتنة ينبغي اعتزالها

ولو كان ذلك هو الحل دائما وأبدا فأين الصادعون في كل زمان

أين من حفظ الله بهم الحق ومكن بهم للملة وسالت في سبيل ذلك دماؤهم وهشمت عظامهم

هل كانت إجابتهم دوما نعتزل لأنها فتنة؟!

نعم إنها فتنة

لكن أي فتنة

وهل الإجابة الدائمة هي الاعتزال

أم أنها إجابة سؤال واحد فقط في ورقة الامتحان الطويلة بطول الحياة الدنيا

سؤال الالتباس وعدم وضوح الفارق الحق والباطل

في الحقيقة هي إجابة ذلك السؤال الأخير وحسب

بينما تأتي إجابات باقي أسئلة امتحان الفتنة مختلفة

فالامتثال للأمر والانتهاء عن النهي إجابة

والشكر على النعماء والصبر على البأساء والضراء إجابة

والثبات على الحق إجابة

والصدع به إجابة

والظهور عليه والدفاع عنه ونصرته بشتى السبل إجابة

والتضحية والبذل في سبيل إحقاقه إجابة

وأي إجابة!!

كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة

قاعدة نبوية مشهورة بين بها الحبيب ﷺ السبب الذي جعل من خصال الشهيد أنه لا يفتن في قبره كسائر المؤمنين

فكفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة..

الفتنة هنا اختبار وبلاء وامتحان وتمحيص

والشهيد قد نجح في هذا الامتحان واجتاز ذلك الاختبار فكان من حسن جزاءه أن عافاه الله من امتحان القبر وفتنته

فكفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة

العجيب أن يستعمل الجبناء تلك القاعدة ليبرروا بها جبنهم بلسان الحال والمقال فيخلطوا بين معاني الفتن ويجعلوا الاختبار مساوٍ للالتباس واشتباه الأمر

العجيب أن يجعلها الخسيس ذو الأخلاق الضباعية ذريعة لنهشه الضعيف وسكوته عن صاحب تلك السيوف البارقة فكفى ببارقة السيوف فتنة

ألا في الفتنة سقطوا..

كم من أناس ملأوا الدنيا نكيرا على ضعيف أمنوا عقابه أو لين ألفوا الاجتراء عليه ثم لم تحس منهم من أحد أو تسمع لأحدهم ركزا في مواجهة صاحب السيف وبوارقه

قد أمنوا العقوبة حينذاك فاستأسدوا وأرغوا وأزبدوا ثم توهج بريق السيوف وبدت الضراء وتكشفت البأساء فخنسوا وكتموا أصواتهم وقصفوا أقلامهم وقالوا هذه فتنة

الخوف شعور إنساني منه ما هو جبلي فليس كل خوف جبن وليس كل خائف خوار

وقد خاف موسى وخاف هارون وخاف غيرهما من الصالحين لكن خوفهم لم يثنهم عن قولة حق وإقدام صدق

فقط حين يكسر الخوف همتك ويخرس لسانك ويقمع صوتك يكون ذلك هو الجبن والخور

الخوف شعور معتبر خصوصا ما كان منه جبليا لكنه إن عطل مروءة المرء وأكسبه جبن الضباع جنبا إلى جنب مع خستها ودناءة صنيعها لم يك حينئذ معتبرا ولا مقدرا

وإجابته على سؤال الفتنة هذه المرة لم تكن تامة كاملة وربما كانت خاطئة

تلك الإجابة وإجابات أخرى كثيرة تظهر من خلالها نتيجة الامتحان لتعلن في ملأ كريم حين يعلمها رب العالمين علما تقوم به الحجة على الأولين والآخرين

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

٢٢. ياليت قومي يعلمون..

من بعيد وجد ريحها

وفي الأفق بدت أبوابها

باهرة هي تلك الأبواب قد تلألأت وأزهرت

إنها تقترب

نعم هي التي تقترب

بأبوابها الهائلة وقصورها المنيفة وشذا نسيمها العطر ونعيمها المقيم

لم يعد بينه وبين ولوجها إلا طرفة عين وانتباهتها

- ادخل الجنة

ها قد جاء الإذن وتم الفضل واكتملت النعمة

أدخل الجنة؟

الحلم الذي طالما راودني والأمل الذي لم يغادر فؤادي والغاية الذي لأجلها عشت وعليها مت

قد صارت الآن رأي العين

قد كلل مسعاي بالنجاح وتوج جهدي بالراحة والفلاح

أوحقا يا أذناي ما تسمعان

أدخل الجنة؟!

الآن؟!

يا لفرحة قلبي ورضا نفسي

لكن أين قومي؟

أين هم ليروا هذا الفضل ويعاينوا هذا النعيم؟

يا ليتهم يعلمون

ياليت قومي يعلمون قومك؟!

أو تسأل حقا عن قومك؟

أوتأبه بهم صدقا فتلتمس حالهم وتبتغي علمهم

أولئك الذين استضعفوك وآذوك

بل قتلوك

أم تراك قد نسيت؟

لماذا تسأل عنهم؟!

ليس عليك هنا تكليف ولا ثواب أو عقاب فما دافعك للسؤال

ما محرك رغبتك في الدعوة والبلاغ وحرصك على هداية الناس؟!

أهو دأب الصالحين الذين هم كالنحل لا يضعون إلا طيبا

أم هو حرص المؤمنين الذين يحبون للناس ما يحبونه لأنفسهم أم تراه سمت العارفين الذين عرفوا فاغترفوا

لعمري إنه لجماع كل ذلك وبالأخص الثالثة المعرفة معرفة الله عز وجل التي متى خالطت القلب بشاشتها نضحت على الجوارح وتهللت بها الأسارير وانعقد عليها العزم واجتمعت عليها النية

وبدون تكليف

كذلك كان حاله في الدنيا

لم ينتظر تكليفا

لم تكن الحاجة إليه ماسَّة ولم يكن الأمر عليه متعينا

إن في مدينته أنبياء

ليس نبيا واحدا ولا اثنين بل كان هنالك ثلاثة أنبياء

وهو رجل عادي من عوام الناس فماذا عساه أن يزيد عليهم أو يضيف؟

ما الفارق الذي يمكن أن يصنعه في وجود كل هذا العدد من أفاضل الخلق وأحسنهم بيانا وأبلغهم حجة ومنطقا؟

وهل بعد تكذيب مدينته لأولئك المعصومين يُنتظر له استجابة أو يُظن به قدرة على التأثير؟!

ربما دارت كل تلك الأسئلة والخواطر في ذهن حبيب النجار–كما ورد اسمه في بعض التفاسير–بينما هو في طريقه من أقصى المدينة ساعيا مُجِدّاً في سيره ليبلغ مكان اجتماع الناس ومنتداهم

ولربما استرجع في تلك اللحظات ما لقيه المرسلون من عنت وصدود وتكذيب ولعله قد دارت بخلده مشاهد الإهانة والتوبيخ التي قوبل بها أولئك الأخيار والتي تجعل غالب الظن بعد كل ذلك أن يلقى ما لقيه أئمة الحق أو أشد لكنه مع ذلك ما انفك عن السعي وما تباطأ به المسير أو قعد عن البذل!

إنه رجل يعرف هدفه جيدا ويدرك أبعاد قضيته بشكل واضح ويعلم أن مناط تلك القضية ليس مطلق ترتب الثمرة ولا حصول الاستجابة فتلك أمور بيد مولاه، لكن الصدع بالحق كان هو مبتغاه والبلاغ عن الله كان هو غاية مسعاه

لذلك جاء..

ومن أقصى المدينة سعى..

ومن أعمق أعماق نفسه صدع: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾..

لم تكن دعوته لنفسه ولم يكن مطلبه لذاته ولم يجعل مسعاه لمصلحته بل أعلن تجرده في أول جملة قائلا: اتبعوا المرسلين

لقد كانت دعوة متجردة نقية وكان صدعا بحق خالص لا تشوبه من شوائب حظ النفس شائبة، فهؤلاء المرسلون الذين لا يسألونكم أجرا والذين هم كذلك لا يطلبون شيئا لأنفسهم هم الأولى بالاتباع،

لقد كان تجردهم قدوة لتجرده وإخلاصهم أسوة لتفانيه وكل ذلك في

منظومة صدق متكاملة هدفها الأوحد إعلاء كلمة الله وتوحيده بالعبادة والقصد وبذل الوسع لإبلاغ رسالته

كان هذا لسان حال حبيب النجار وما لخصه لسان مقاله في كلماته البديعة التي خلد ذكرها المولى في كتابه قائلا:

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾..

كلمات نورانية رقراقة تخاطب العقل والروح معا في آنٍ واحد، نطق بها الرجل في هذه الظروف العصيبة ورغم كل ذلك التكذيب وتلك العوائق والعقبات التي واجهت من هم أعلى منه منزلة وأجل قدرا

ولئن كان من متعذر عن قول الحق والنطق به والصدع بكلماته بدعوى مظنة التكذيب وتوقع عدم الاستجابة لكان رجل يعيش في قوم كذبوا ثلاثة أنبياء ولم يقبلوا منهم حقا ولم يصدقوا منهم حرفا وما استجابوا لهم هو أولى الناس بذلك

هو أولى الناس بأن يقطع الطمع في هداية الخلق أو يفقد الأمل في هدايتهم إلى الحق؟

لكنه لم يفعل..

ولم يتعذر ولم يتلكأ

لم يحقر نفسه ولم يتعذر بعدم أهمية قوله أو يحتج بقلة قيمة صدعه

بل جاء من أقصى مدينته وسعى وتكلم وصدع ونصح ووعظ

ولقد أعذر

فأي همة تلك؟!

وأي إصرار هذا الذي استقر في نفس رجل كان من الممكن أن يتعذر بحجة وجود الأنبياء وقيامهم بواجب الصدع والبلاغ

وأي حرص على أن يعلم الناس عن ربهم

لعل أشد ما يثير الدهشة والعجب في تلك القصة وذاك الموقف القرآني الباهر هو الموطن الذي قيلت فيه تلك الكلمة

فلقد قال الرجل: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ في دار غير الدار وحال غير الحال

لقد قالها وهو يكاد يدلف إلى الجنة!

خرجت منه تلك العبارة بعد أن قتله قومه ونال الشهادة على أيديهم ورغم ذلك كان همه أن يعلموا!

كانت رغبته وما يشغل ذهنه أن يدرك الناس ما عند الله من المغفرة والإكرام

إنه مشهد يجسد حرصا غير عادي وتفانيا منقطع النظير ورغبة عارمة في هداية الخلق وتعريفهم بالحق..

حتى بعد موته قد ظلت رغبته في هداية الناس يقظة وحرصه على نصحهم وإرشادهم متأججا فقال حين عاين النعيم وأبصر الجنة: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾

وفي ذلك المقام الذي كان من الممكن أن ينشغل فيه عن كل ذلك بالطيبات التي أكرم بها وينسى واجب البلاغ

لكنه أيضا لم يفعل، فلم ينقطع أمله في قومه ولم يتكاسل عن نصحهم وبذل الوسع في الأخذ بأيديهم طالما كان فيه عرق ينبض، واستمر على شأنه هذا حتى بعد أن لم يعد ذاك العرق ينبض وانتقل إلى دار القرار!

نموذج عجيب ونمط فريد

لكنه ليس نموذجا وحيدا

فلطالما كان هناك فتيان لم يحقروا أنفسهم بل قاموا وقالوا الحق كما قاله أصحاب الكهف ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

ولطالما وُجد الرجال الذين لم يخافوا في الله لوم اللائمين ولا قمع الطاغين أو بطش المفسدين،

ولكم تكرر هذا المعنى في كتاب رب العالمين ولكم ترسخ هذا المفهوم

في كلام سيد المرسلين ولتستقر تلك العقيدة ولتضرب تلك القيمة بجذورها في قلوب المؤمنين.

قيمة البلاغ والصدع بالحق والرغبة في هداية الخلق بغض النظر عن الظروف والمعاملات والمؤثرات المحيطة وبدون تعليق الأمر على مظان الاستجابة من عدمها

إنها قيمة غرس الفسيلة حتى لو كان ذلك بين يدي الساعة وتيقن استحالة إدراك الثمرة

بتلك القيمة ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

رغم وجود نبيين أثناء تلك اللحظات الحاسمة التي أمر الله فيها بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومواجهة القوم الجبارين وقعود بني إسرائيل عن ذلك ورغم أن كثيرا من الناس سيعلقون هنا مسؤولية النصح والبلاغ على النبيين موسى وهارون عليهما السلام إلا أن رجلين من عوام الناس –على قول جمهور المفسرين– لم يفعلا

إنهما رجلان أنعم الله عليهما بالتقوى والإيمان والفهم الصحيح والعقل الراجح قد استشعرا مسؤولية وعلما أن عليهما واجبا تجاه أمتهما فلم يحقرا نفسيهما كحال كثير من الناس بل تكلما ونصحا وصدعا وأعذرا

صحيح أن بني إسرائيل لم يستجيبوا لهما لكن يكفيهما أن ربهما قد

ذكرهما وأنعم عليهما وخلد سيرتهما بتلك القيمة التي تُبرز أرقى معاني الإيجابية والرغبة في تغيير الناس للأفضل مهما قست طبيعتهم ووعرت نفوسهم وصعبت استجابتهم.

وبتلك القيمة أيضا خلد ذكر أولئك الناهين عن السوء في قصة أصحاب السبت

أولئك الذين حاول المثبطون تخذيلهم وإبطاء حركتهم الدعوية الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر متحججين بهلاك الناس لا محالة ومدعين أنه لا سبيل لهدايتهم ولا قيمة لوعظهم ودعوتهم فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾..

ولو أن أصحاب الرسالة قد التفتوا يوما لتثبيط المثبطين وتخذيل المعوِّقين لما صنعوا شيئا ولكان مآل حالهم القعود ومنتهى سعيهم التثاؤب والكسل ولما ائتمر بمعروف ولا نُهي عن منكر ولما صُدع بحق أو أُبطل باطل

لكن صاحب الرسالة يمضي في طريقه ولا يلتفت ولا يُسلم أذنيه لأهل التخذيل والتثبيط، وهو حين يمضي يضع نصب عينيه أمرين أعلنهما أولئك الناهون عن السوء

أولهما الإعذار إلى ربه والسعي لإرضائه

وثانيهما الأمل في التغيير الذي لا ينقطع وإن انقطعت الأسباب

يظهر ذلك جليا في ردهم على أولئك الذين بذلوا وسعهم ليعوِّقوهم وليكسروا عزائمهم زعما منهم أنه لا فائدة ترجى من صنيعهم فكان الرد حاسما ساطعا براقا: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

وعلى الدرب نفسه سار من قبلهم مؤمن آل فرعون

ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه خوفا من بطش الطاغية مدعي الألوهية

لكن تلك اللحظة التي برزت فيها قيمة الصدع والحرص على الأخذ بيد الخلق إلى الحق كانت قد آنت وحان موعدها ومن ثم تكلم الرجل وفاض ما في قلبه إلى لسانه وجوارحه التي ظهر عليها مدى خوفه على قومه ورغبته في هدايتهم خصوصا في نداءاته التي كان يتلوها خوفه عليهم وتتبدى من خلال حروفها تلك القيمة التي نتحدث عنها:

﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾

﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾..

إنها دعوة الفطرة، والحق، والخير العظيم، والنصيحة، والحرص الأمين علي استنقاذ الخلق من العذاب المهين

دعوة نصوح نافعة بهيجة، يجللها الحرص على الإفادة وتفوح منها

الرغبة في الخير للمدعو

ألا هكذا فلتكن الدعوة وعلى ذلك فليكن الداعية.

ويالها من قلوب قاسية تلك التي لا تستجيب لمثل هذا الحرص، ولا تتجاوب مع كل هذا اللين والحكمة والموعظة الحسنة

لقد كانت كلماته نصيحة نموذجية شاملة جامعة جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير وضرب الأمثال وحوت المنطق العقلي والمعالجة الإيمانية، والبعد التاريخي، وزينها تواضع الداعية وأدبه واحترامه للمخاطب

ثم ختم الرجل المؤمن بلاغه، وأتم دعوته، وقال بتسليم مطلق وتفويض تام لملك الأنام: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾؛ فلم يشترط إجابة ولم يربط دعوته بامتثال أو قبول من مدعويه بل فوض أمره إلى من إليه يرجع الأمر كله

وهكذا كان رجال من عموم الناس صدعوا بالحق في كل زمان ومكان ليسوا بأنبياء ولا مرسلين بل هم بشر عاديون غير معصومين، جمع بينهم قول الحق والصدع بالأمر وعدم كتمان الإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم وامتزج ضياؤه بقناعة عقولهم، لم يشترطوا على ربهم أن تنجح دعوتهم، ولا أن تثمر مسيرتهم، فكان حالهم ومآلهم نموذجا عمليا وتطبيقا واقعيا لتلك القاعدة الربانية: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾.

وإن من الناس من يظن أن صدعه بما يراه حقا وجهره بها يعتقده صوابا وصدقا إنما هو مرتهن بمظنة استجابة الناس له وطلبهم لسماعه وقبولهم لقوله، فإن غلب على ذلك الظن أنهم سيستجيبون نطق وإن آنس منهم رغبة في سماعه صدع، وإن كانت الأخرى سكت وكتم وأعرض؛

قد طابت نفسه وارتاح ضميره بمسكنات «لا فائدة» ومهدئات «هلك الناس»، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن المرء إنما يصدع لينجو، وإنما ينصح ليُرضي ربا لم يتعبده بالنتائج ولم يكلفه بالثمار، وأنه أحوج إلى النطق بالحق والجهر به ممن يسمعونه سواء أستجابوا له أم لم يستجيبوا، متمثلا نهجا قويما لطالما سلكه الدعاة وأقره كتاب الله فحواه: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾..

وما يدريه ألا يكونوا من أهل قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾؟

فما بال أقوام يتعذرون ويتلكئون، وعن قول الحق والصدع بالنصح هم معرضون، ورغم الحاجة إليهم هم مبتعدون، وعن قومهم هم محتجبون،ولقضايا أمتهم هم مهملون، فمتى يظهرون، وإلى ربهم يعذرون، ولأمتهم ينصحون، وللواء قضيتهم يرفعون،

متى عساهم يشعرون ويحيون بقيمة: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾



٢٣.جزى الله الشدائد كل خير

الأخلاق تظهر عند المحكات والحقائق تنجلي عن الشدائد والأزمات
قاعدة تثبت المتغيرات والأحداث كل يوم مدى صحتها وإحكامها
لن يظهر حسن أو سوء خلق المرء ولن تُتبين حقيقته إلا عندما يختبر ذلك

طالما هو في رخاء والأمور طيبة ومستقرة فكيف سيعرف هل هو صبور قادر على تحمل الأذى أم ساخط غير مطيق للبلاء

وطالما هو في مودة ووفاق مع غيره ولم يحدث أي اختلاف بينه وبينهم فمن أين سيعلم هل هو متعصب غضوب أم هو منصف قادر على الحوار والتفاهم

ومن أين سيدرك أنه سيء الأدب بذيء اللسان فاحش القول إن لم يوجد من يستفزه ويحرك مكامن تلك السلوكيات القابعة في أعماق نفسه تنتظر تلك اللحظة التي تجد فيها من يحركها لتخرج بكل بشاعتها وقبحها

نعم إنها الشدائد والمحن التي تظهر وتميز الدعيَّ من الحقيقي والكاذب من الصادق والمرائي من المخلص

إنها الابتلاءات التي تبين المعدن الحقيقي للإنسان وهل هو يردد مجرد

شعارات جوفاء ويتشدق بمبادىء صورية ويرتدي أخلاقا مزيفة سرعان ما ينخلع عنها عند أول محك أم أنه فعلا يعتقد ما يقول ويمارس ما يدعو إليه

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

هذا المعنى من أهم وأدق معاني الفتنة وليس فقط ما يصر البعض على حصر الفتنة فيه من كونها التباس في الرؤية وعدم وضوح الحق من الباطل

لكن الفتنة من مادة (ف.ت.ن) وأصلها فتن الذهب أي صَهَرَه في النارِ ليختبره ويصفيه ليخرج وينبذ ما فيه من الخبث والشوائب

ويقال: فتنته النارُ بمعنى صَهَرتْهُ.

وهذا هو ما نراه اليوم بكل وضوح

فكم من ثوابت وشعارات ومبادىء توطأ بالأقدام ويلقى بها عرض الحائط لأن صاحبها ومرددها رسب في الاختبار وسقط في امتحان البلاء واختبار الضراء أو السراء

كم أخلاقيات كانت يوما عنوانا للتسنن وعلامة على التمسك والالتزام صارت اليوم هباء منثورا بدعوى النضال والدفاع عن الحق

وأي حق هذا الذي يدافع عنه بالفحش وسوء الخلق وأي نضال هذا الذي يكون عنوانه التنازل والتهاون في الثوابت الشرعية والأخلاقية والفكرية

قديما قال الإمام الشافعي رحمه الله:

جزى الله الشدائد كل خير وإن كانت تغصصني بريقي

وما شكري لها إلا لأني عرفت بها عدوي من صديقي

إن الأزمات، والابتلاءات، وعدالة القضايا، وسلامة المقاصد ليست أبدا مبررات أو مرخصات للتنازل عن الثوابت والمبادىء الشرعية والأخلاقية.

ومن كانت مبادئه وثوابته مرتبطة بمشاعره وردود أفعال مخالفيه وجودا وعدما فهي في الحقيقة ليست مبادىء ولا ثوابت ولا أخلاق لكنها بالنسبة إليه مجرد شعارات يمتطيها وقت الحاجة وقد صح عن النبي قوله: «**ليسَ الواصِلُ بالمُكافِئِ، ولَكنِ الواصلُ الَّذي إذا قُطِعتْ رَحِمُه وصلَها**»

والحديث معناه أن المرء حين يصل ما أمر الله به أن يوصل فإنه لا يفعل ذلك كمقابل أو مكافأة لمن يصلهم ولكنه يفعله لأنه الصواب ولأنه قبل أي شيء يعامل الله وليس الناس

من فهم ذلك وجعله نصب عينيه سهل عليه معه أن يحسن ويصبر ويدفع السيئة بالحسنة

لكن من ظل الارتباط عنده بين أخلاقه وثوابته وبين حالته النفسية ومزاجه الشعوري وحبه أو بغضه فإنه لن يطيق أن يطبق ما يدعو إليه

وستفضحه الشدائد وتعري حقيقته الأزمات وتظهر خبث سريرته الاستفزازات والملمات و﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ﴾

و هكذا البلاء

ممحص مبين كاشف

والفائز من دام على ثوابته ولم يُنسِه المخلوقُ خالقَه

لذلك ورغم أن الأصل سؤال الله العافية تظل الشدائد كاشفة ومربية للجميع وتظل الابتلاءات مظهرة للحقائق والخبايا

فجزاها الله كل خير



٢٤. الوعود الربانية بين التصديق والتضييق (١-٢)

تعالت الصيحات في شعاب مكة وطرقاتها الضيقة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾

- من هذا؟!

- الصوت ليس غريبا

- لماذا يصيح ابن أبي قحافة بهذا الشكل؟

- وكيف علم أن الروم قد غُلبت؟

- إن بيننا وبين الفرس والروم ومعاركهم مئات الأميال!

- وكيف علم أنهم سيغلبون من جديد بعد بضع سنين؟

- لابد أنها تلك الكلمات التي يرددها صاحبه على مسامعه صباحا ومساءً

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾

استمرت الصيحات تجلجل بثقة في أرجاء مكة

كرر الصديق أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- صيحاته المستبشرة بالآية الكريمة في طرقات مكة والملأ من المشركين يضربون كفا بكف

كانت فارس يوم نزلت هذِه الآيةُ قاهرينَ للرومِ وكانت قريشٌ تحبُّ ظُهورَ فارسَ لأنَّهم وإيَّاهم قوم وثنيون ليسوا بأَهلِ كتابٍ ولاَ إيمانٍ ببعث ولا نشور

لذا فقد وقفوا لأبي بكر مشككين يقولون: فذلِكَ بينَنا وبينكُم زعمَ صاحبُكَ أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارسَ في بضعِ سنينَ أفَلا نراهنُكَ على ذلكَ؟

قال بيقين المؤمن المصدق بموعود الله الذي لا يهزه تشكيك ولا يزعزعه مراء أو تسفيه: بلى.

قبل الصديق رهانهم وكان ذلك قبل تحريمِ الرِّهانِ

فارتَهنَ أبو بكرٍ والمشرِكونَ وتواضَعوا قيمة الرِّهانَ لكنهم طلبوا منه تحديدا قاطعا يجزم فيه بالعام الذي تنتصر فيه الروم على عدوها

وهنا كانت الزلة

ولا معصوم إلا الأنبياء

لقد كان الوعد الرباني في الآية على التراخي ولم يك على التعيين لكن أبا بكر رضي الله عنه سمى أجلا وحدد موعدا وما كان له أن يفعل لكن يقدر الله أن يزل تلك الزلة وليتعلم المسلمون درسا ما أعظمه

لقد حدد البضع هنا بست سنين وراهنهم الصديق على ذلك

ومضت الأعوام وحدثت المتغيرات ووقعت الوقائع ثم جاء أجل الرهان

ولم تنتصر الروم

رغم مضي الأعوام الستة كما وعد أبو بكر لم ينتصروا

تهلل المشركون وظنوا أن قد أثبتوا خللا في وعد الله فأخذوا رَهنَ أبي بكرٍ فرحين بباطلهم مستبشرين بتكذيبهم ودخل على الصديق يومئذ غم عظيم

لكن اليقين بموعود الله أبدا لم يهتز

إن الذي زل هو الصديق وهو بشر يخطىء ويصيب على مكانته وقدره ولعله تسرع لشدة يقينه وتصديقه

لكن المسلمين -كما في رواية الأثر عند الترمذي بسند صحيح- قد عابوا عليه ذلك التحديد

فما هكذا تعامل الوعود الربانية والبشريات النبوية

خصوصا تلك التي بغير تعيين وتحديد أوقد جاءت على التراخي

صحيح أنه ما دخَلَتِ السَّنَةُ السابعَةُ إلا وقد ظهرَتِ الرُّومُ على فارِسَ وتحقق موعود الله وآمن خلق كثير بعد تلك الآية والنبوءة القرآنية المتحققة

لكن ما يعنينا هنا أن أبا بكر كان قد وعى الدرس

تمر الأعوام ويأتي موقف الحديبية ويعلن وعد نبوي آخر بالاعتمار ويستبشر المسلمون وتتهلل أساريرهم

ها قد حان الوقت لنرى بيت الله الحرام وكعبته المشرفة من جديد

ها قد آن الأوان لنلبي النداء ونهل محرمين مكبرين مهللين ولنطوف بالبيت العتيق

فلنسق الهدي ولتسابق قلوبنا لتهفو إلى أم القرى

لكن جاء المنع وعاند أئمة الكفر

ثم كان الصلح في الحديبية

لا عمرة إذاً هذا العام!!

- «أليسَ كان يُحَدِّثُنَا أَنَّا سنَأْتِي البيتَ ونَطُوفُ به؟»

هكذا صاح الفاروق عمر في صاحبه ورفيق كفاحه الصديق

ألم يعدنا رسول الله أن نأتي البيت محرمين محلقي رؤوسنا ومقصرين

فيجيب بيقين الواثق الذي وعى الدرس وفهم كيف التعامل مع الوعود والبشريات: بلى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّك تَأْتِيه العامَ؟

- لا

أجاب عمر نافيا التحديد

هنا صدع بها أبو بكر بحسم لا يساوره الخلل ولا يأتيه الملل ولا الزلل: «فإنك آتِيه ومُطَوِّفٌ به»

وهكذا يعامل الوعد تصديق ويقين ولو بعد حين

كم من وعد أطلق في القرآن بتمكين المؤمنين وعز الموحدين

لكن هل قيل متى؟

﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾

وعد قاطع لا شك فيه

لكن متى هو؟

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

لكن متى هو؟

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾

﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ ﴾

متى هو؟!

العلم عند الله

والتكليف: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

إن وعود الله ينبغي أن تصدق وواجب المؤمن تجاهها أن يوقن بها وأن يُبَشِّر ويستبشر

بل وواجب الوقت عند البلاء والكرب أن يبشر المؤمنين والصابرين والمخبتين والمحسنين ويثبتهم

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

بشر الصابرين

بشرهم..

لكن إياك أن تتكلف وتتقعر وتقطع وتجزم بما لم يحدده الله جل وعلا

إياك أن تتألى على غيب أو تضيق واسعا أو تقطع بما لا تعلم

التبشير يكون مطلقا كما علمنا الله وعلمنا رسوله ﷺ

وإن الاستثناء لهو التحديد بزمان أو لشخص معين

إن موقف النبي مع سراقة بن مالك ووعده شخصيا بسواري كسرى

ليس هو الأصل إنما هو آية وبشارة استثنائية

لكن جل الوعود القرآنية والنبوية تأتي بصيغة الإطلاق الزماني والعيني

مثال ذلك وعده لخباب بن الأرت بتمام هذا الأمر

لم يذكر له متى يتم الله هذا الأمر لكنه سيتم

ولقد صدَّق خباب

وصدَّق المؤمنون

ودائما ما كانوا يصدقون حتى في أحلك الظروف وأقسى اللحظات

لحظات مثل تلك التي هوى فيها بمعوله على تلك الصخرة

ضربة قاسية هي!

لكن الصخرة عنيدة

لم يحدث شيء!

هوى به مرة أخرى

وثالثة.. ورابعة

لا فائدة

الصخرة الكأداء صلبة للغاية، ويبدو كسرها مستحيلاً،

رفع عينيه يبحث عن عون في من حوله، من بين طبقات الغبار الكثيف الذى يتصاعد فى المكان، و قد تعالت أصوات المطارق والفئوس تحفر فى الأرض بهمة ونشاط لم ينقصهما الجوع الذى تتلوى منه بطون القوم

ما العمل؟

لا يمكن ترك هذه الصخرة هكذا ،

لا بد أن تُكسَّر،

الوقت يمر بسرعة.. والانتظار ليس فى صالحنا ،

يا قوم من لهذه الصخرة؟

التفت القوم إلى مصدر النداء، وبدأت طرقات المعاول تتخافت رويدًا رويدًا ، وقد تقدم حاملوها للمساعدة فى تحطيم تلك الصخرة العنيدة،

محاولات حثيثة لكن بلا فائدة !

الصخرة صلبة ، لا تزحزح عن مكانها!

فليُرفع الأمر إليه إذن،

إنه هناك فى الناحية الأخرى من الموقع،

لا ليس فى خيمة مريحة، ولا فى ظل شجرة وارفة مليحة !

إنه معهم ،وبينهم؛ يعمل مثلهم بل أكثر منهم!

ها هو يبدو من بعيد، وقطرات العرق النضيد تلتمع على جبينه الأنور العريض، بينما على بطنه صخرة تُصّبر معدته الخاوية، على لأواء الجوع وشدة المخمصة العاتية،

لقد أبى إلا أن يشارك جنده كل شىء! فليس بمَلِك، ولا سلطان، إنما هو عبد الله، ورسوله ﷺ

والخطب جلل،

والتكليف عظيم يحتاج إلى كل ساعد يساعد ،

خندق طوله خمسة آلاف ذراع، بعمق لا يقل عن سبعة أذرع ، وعرض لا يقل عن تسعة أذرع، حرى بالجميع أن يتكاتفوا ويتآزروا لحفره،

وما كان للحبيب ﷺ ألا يصبر نفسه مع المؤمنين، ويتقدم صفوف المجاهدين،فهوسيد المتواضعين،وإمام الباذلين المضحين،

هلموا إليه، وخبروه بشأن الصخرة العنيدة ؛لعل الله يفتح بيديه الشريفتين، بأبى هو، وأمى، ونفسى، ومالى، وعيالى،

ها قد أشرق بوجهه الذى لم تستطع سحب الغبار الكثيف أن تحجب نور النبوة الذى يسطع من قسماته!

تهللت أسارير القوم،وقد أنساهم قربه لفح الحر،وعناء الحفر،وقسوة

الجوع،

تناول المعول من صاحبه الفارسى؛ صاحب هذا الاقتراح العبقري الذى يعكفون على تنفيذه منذ أيام،

هاهو يرفع يديه الشريفتين بالمعول، ذاكرًا ربه جل وعلا ،مستفتحًا باسمه،

الله أكبر.. لقد انشقت الصخرة العنيدة، والشرر يتطاير من أثر احتكاك المعول بها،وكأنه البرق يسطع،

«الله أكبر.. تمت كلمة ربك صدقا ، وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم

أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني الساعة»!

ماذا؟!

فى تلك الأحوال العصيبة،

فى هذه الظروف القاسية؛تبشرنا؟ !

سبحان الله!

تبادل بعض الحاضرين نظرات ذات مغزى،وسرى بينهم حديث بلغة العيون، فحواه التكذيب،وخلاصته الاستهجان،

إنها الوجوه المتشككة نفسها ؛ التي تطل علينا في كل مرة،

وجوه مستريبة،تعلوها غبرة النفاق، وتظهر على قسماتها قترة الحقد، والتربص،

وكأن عيون الحقد والنفاق تتراسل قائلة: نحفر خندقًا لأول مرة فى تاريخ العرب، وقد رمتنا قبائلها عن قوس واحدة، بعدد لم تشهده حرب فى جزيرتنا قط،ومحمد يعدنا أرض الروم؟!

قطع سيل أفكارهم، ونظراتهم؛ صوت الضربة الثانية، ورسول الله ﷺ يهوى بها على الصخرة

«الله أكبر... أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض من مكاني هذا، أخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم فأبشروا بالنصر»،

بشارة نبوية فى ذات اللحظة التى تطاير فيها الشرر البارق من الصخرة المتهاوية التي لم يتبق منها الشيء الكثير،

ازدادت حدة نظرات الريبة من نفس الطائفة المستريبة، وتواصل حوار العيون من جديد؛

أي مدائن يعني؟!

أو يقصد مدائن كسرى؟

هل غرَّ هؤلاء دينهم لهذه الدرجة؟

كسرى!!

أنى لنا بكسرى، وقيصر؛ ونحن لا نعلم ماذا يفعل بنا العرب غدا، أو بعد غد ؟!

انقطع سيل الأفكار، وتمزقت خيوط الظنون من جديد، حين دوى صوت الضربة الثالثة في المكان ، وتوهج بريق الشرر المتصاعد من حطامها ، بينما تتعالى الصيحة يجللها التكبير: «أُعطيت مفاتيح اليمن،والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة»،

واليمن أيضا؟؟!!

إن هذا لشيء عُجاب!

هكذا تسارعت الأفكار لرءوس مظلمة، حملتها أعناق المتربصين، ولسان حالهم الذي لم يلبث إلا أنصار لسان مقالهم حين خلوا إلى شياطينهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾،

خفافيش ظلام تكره الضياء والنور،وتنفر من البشرى والسرور الذي فاض من حروف الرسول ﷺ، إلى قلوب الصادقين المُصّدِقين،

أفي تلك اللحظات سرور،وحبور؛

ونحن في غمرات هذا الخوف، والجوع ،

كيف؟!

أو لمجرد صخرة تتهشم، مثل هذا الأثر البالغ على قلوبكم أيها المصدقون؟!

أم أنها البشارة أنتم بها موقنون، والنصر المبين أن تمله منتظرون؟

هذا هو الفارق الجوهري، بين من هم بموعود ربهم مؤمنون، وبينكم أيها الضالون المكذبون،

أما الأولون فلا يضيرهم رهق الخوف، ولا تنال منهم شدة الجوع، ولا يؤذيهم نقصان أمنهم؛ فإن جنانهم، وبساتينهم في صدورهم، في ظلال يقينها يرفلون، ومن ثمار صدقها يقطفون،

وأما الآخرون فأسرى لخوفهم، يَصلون لهيب جبنهم وخورهم، ويتقلبون في جحيم حقدهم وشكهم، فأنى لقلوبهم أن تدرك الفسحة والحبور، وتنال من فيض السرور؟!

إنه الفارق بين من شعاره حين يرى جحافل الكفر قد احتشدت، وأحزابه قد تمالأت: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾،

وبين من لا ينقطع عن التشكيك ناعقا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾،

إن هذا الزلزال الشديد، الذى تعرضت له المدينة فى هذه الغزوة، كان كافيا لتتكشف الفوارق، ويحدث التمايز،

كان كفيلا ليظهر من يعبد الله على حرف، وما إن يأتى البلاء حتى ينكص على عقبيه، ويظن بالله الظنونا،

فما إن جاءت الأحزاب، واصطفت قريش وغطفان وفزارة وأشجع

ومرة بجنودهم، حتى دارت أعين فى محاجرها، كالذى يغشى عليه من الموت،

إنها أعين المنافقين؛

أولئك الجبناء، الذين لا ينكئون عدوا، ولا يصلون صفا، ولا يسدون ثغرا،

قوم لا تجد منهم إلا التخذيل، ولا ينالك من ألسنتهم الحداد إلا التخويف، والتبطيء، ولا يأتون البأس إلا قليلا،

نداؤهم:

﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾،

يثرب؟؟!!

وما يثرب؟

عجيب قولهم يثرب؛

ذلك الاسم الذى له وقع غريب على الأذن، وصدى عتيق فى القلب، يذكر بأيام الشرك والظلام؛

يثرب!

ألم يندثر هذا الاسم ويزل ذكره عن الألسنة؟

ألم يُنس هذا الاسم؛ وقد أبدلنا الله خيرا منه، لما جاءنا الحبيب، فأنار من مدينتنا كل شيء، وصارت يثرب هى مدينة رسول الله ﷺ؟

ومن حينها صار اسمها المدينة النبوية وطيبة وطابة وطائب، وغير ذلك من الأسماء الحسنة التى امتن الله بها على مدينتنا،

فلماذا العودة إلي مثل هذا الاسم، الذى ارتبط فى أذهان الجميع بعهود الشرك والضلال؟

هل ظننتم أن تكالب الأحزاب حولنا، واستئسادهم علينا،ورمى العرب لنا عن قوس واحدة، سيجعل الزمن يعود إلى الوراء، فينصرم الأمر، وينتهي الخير، وينفض الخلق؟

هل سولت لكم أنفسكم أن تتخيلوا أن فتح الله لمدينتنا، وإكرامها بنور الوحى، الذى أضاء جنباتها وقلوب أهلها، كان حلما جميلا، سنستيقظ منه على أصواتكم القبيحة، وهى تؤذى أسماعنا بتلك الكلمات المثبطة؟

هل توقعتم أن إرجافكم وتشكيككم سيفُت فى عضدنا ،أو يزعزع ثقتنا، أو يقوض عزائمنا؟

هيهات هيهات،

انظروا إلى تلك الأحزاب التى بها تخوفوننا،

انظروا إلى عدتهم وعتادهم وسيوفهم ونبالهم وعددهم وبأسهم الذى لم تشهد مثله مدينتنا،

انظروا إلى حساباتكم المادية التى تكادون أن تعبدونها من دون الله،وقد أكدت لكم أننا سنُمحى من على الأرض محوا فى هذه المواجهة ،

انظروا إلى كل ذلك ،وتأملوه ،واسترسلوا في وهمه،

وبينما أنتم تنظرون وتمنون أنفسكم بزوالنا فلتسمعوها منا، ولتدعوها تقرع آذانكم، وتقض مضاجعكم، وتؤرق أجفانكم،

اسمعوها وعوها جيدا ،فلا نقول غيرها فى مواجهة أحزابكم وعددكم وعدتكم،

اسمعوا منا فلن نقول إلا:

﴿ **هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا** ﴾،

نعم،

فهذا الذى ترونه تهاويا لأمتنا،وتداعيا لدولتنا، نراه نحن بداية لمجدها، وفاتحة لعزها، وتحقيقا لموعود نبيها،

نرى فى ذلك الزلزال الشديد، والبأس الرهيب، نصرا من الله، وفتحا عن قريب،

نرى بعين قلوبنا مدائن كسرى وقصره الأبيض، وأبواب صنعاء، وقصور الشام الحمراء،

نراها بقلوبنا، تصديقا لوعد نبينا،

وإن كان أحدنا لا يأمن الآن أن يخرج فى تلك العاصفة، ولو لقضاء الحاجة، خشية سهم عدو، أو حربة محارب، أو حتى تخطف ريحها درة،إلا

أن كل ذلك لا يؤثر و لو للحظة علي يقيننا،

فقد وعد نبينا، وهو لا ينطق عن الهوي، إنما يبلغ عن مولاه الذى ما ودعه وما قلاه، فهو وعد من الله، ولا يخلف الله وعده

لقد كان شعار المؤمنين دائما دوما كشعارهم يوم رأوا الأحزاب وزلزلوا زلزالا شديدا فقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا ﴾

إنه يقين لا يهتز في زلزال البلاء وتصديق لا يرتجف بين رياح الأنواء وتسليم لا يذوب في أتون المعارك

﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾

عقيدة ثابتة لا تتغير ولا تتلون ولا تتبدل بتبدل الظروف والمؤثرات

وفارق من أعظم الفوارق بين المؤمن الصادق والمنافق الكاذب

فهذا الأخير لا يصدق إلا ما تلمسه يداه ولا يوقن إلا بما يراه لذا تجده متربصا إن جاءت الريح في مصلحته ركبها وأمعن في الانتفاع منها وإن جاءت بما لا تشتهي سفنه شكك وكذَّب وكان لسان حاله ومقاله كمن قللوا يوم الأحزاب: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

أما المؤمن فاعتقاده بمعزل عن مصلحته العاجلة ويقينه منفصل عن أهوائه وشهواته الآنية وحيث أنه لا ارتباط بين المتغيرات وبين ما يصدقه لذلك تجد منحنى اليقين والتصديق والأمل لديه ثابت سواء رأى أو لم ير

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾

الاحتمالان قائمان إذن

أن ترى

أو لا تعيش لترى

لكن التصديق ليس خاضعا للاحتمال

وقد وعدت خديجة بين المؤمنين لكنها ماتت في الشعب ولم تشهد أي فتح أو نصر

ومات مصعب وحمزة في أحد دون أن يريا تمكينا أو فتحا لمكة

مع ذلك ظل اليقين وظل العمل والثبات والتصديق بموعود الله حتى إدراكه أو الممات

وهكذا تعامل الوعود الربانية

يقين وتصديق بغير اشتراط أو تكلف تعيين

وهذا اليقين هو الذين يهون به الله على المرء مصائب الحياة ويعينه على تقلبات الأحداث ويعطيه الرصيد النفسي الذي يدفعه لإكمال الطريق دون استعجال الثمرة أو التململ أثناء طريقها

تأمل حال نوح عليه السلام

ألف سنة إلا خمسين عاما يتعرض للسخرية والإهانة والتكذيب ومع

ذلك يكمل دون تململ أو تأفف أو استعجال

إنه اليقين والتصديق

وكذا حال إخوانه الأنبياء

إن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه إلا رجل ورجلين ومنهم من يأتي ليس معه أحد

ومع ذلك التصديق كما هو واليقين ثابت والعمل مستمر

اليقين هو الذي يعين المرء على كل عمل من أعمال الدين لأنه يثق أن هناك ثمرة إن لم يدركها في الدنيا فسيدركها غيره وسيدرك هو ثمرة الآخرة

وهي خير وأبقى

من هنا إن قامت القيامة وفي يده فسيلة فسيغرسها

لن يرى ثمرتها

ولكنه سيغرسها لأنه مصدقٌ

موقنٌ أن هنالك وعدا وأن وعد الله حق وأنه لا يخلف الله وعده

وهكذا في وعود نصر الأمة وتمكينها

بشرط ألا يتقول المرء على الله

ألا يحدد ويشترط أو يسمي أجلا لم يسم

وألا يستعجل

فالميعاد غيب مطلق لا يعلمه إلا الله بينما الوعد حق قطعي وقول إلهي

ومن أصدق من الله قيلا واليقين في هذا الحق والثقة في هذا القول عقيدة ثابتة راسخة

ولقد قيل أن ابتلاء أيوب عليه السلام دام ثمانية عشر عاما حتى جاء الفتح وكشف الله ما به من ضر

وقيل أن افتراق يوسف عليه السلام عن أبيه جاوز الأربعين عاما حتى بلغ أشده

ثم جاء الفتح وكان اللقاء وجمع الله شملهما

وقيل أن أعواما مرت حتى استجاب الله دعاء موسى عليه السلام على فرعون وقومه وطمس على أموالهم وشدد عليهم وأذاقهم العذاب الأليم

وفتح بين موسى وبينهم بالحق وهو خير الفاتحين

ومكث المسجد الأقصى في الأسر عشرات السنين

حتى جاء الفتح وحرره صلاح الدين

ومكث نوح عليه السلام يدعو قومه مئات الأعوام دون كلل أو ملل حتى فتحت أبواب السماء بماء منهمر وفجرت الأرض عيونا والتقى الماء على أمر قد قدر

وفتح الله للمغلوب وانتصر

وكذلك فتح الله

يأتي متى شاء وكيف شاء وإن طال الزمان واستيأس الناس فإنه يفتح

في النهاية

المهم أن يوقن عبده ويثبت على الحق ولا يحملنه استبطاء الفتح على التفريط أو الشك

وأن يصبر

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾

أما فيمن يتحقق الوعد ومن يستحقون تلك البشرى فلذلك مقام آخر لعلنا نكمله في المقال القادم إن يسر الله لنا وأذن



٢٥. الوعود الربانية بين التصديق والتضييق ٢-٢

قضى عامه الدراسي في اللهو واللعب

فعل كل ما يشتهيه

لم يترك لذة إلا وقد سارع إليها

لم يبذل أدنى مجهود ولم يحرم نفسه من أية متعة

لم ينفق وقته وجهده إلا على اللهو والنزهات والتلذذ بكل سبيل

اقترب الامتحان..

لكنه لم يغير شيئا من عاداته

لم يقلل من ساعات نومه الطويلة ولم يفق من غفلته الثقيلة

ما زال لاعبا لاهيا لاغيا

لم يبذل أي مجهود ولم ينظر تقريبا في أي كتاب

ثم جاءت ساعة الحسم

تلقى ورقة الأسئلة والإجابة

الوقت يمر

لم تزل ورقة الإجابة أشد بياضا من الثلج

لا يوجد لديه ما يخطه فيها

هكذا جرت السنن

من جد وجد ومن زرع حصد وهو ما زرع ولا بذر ولا جد فما وجد وما حصد

ها هي النتيجة تعلن بعد أسابيع وها هو بذله واستحقاقه ماثل أمام عينيه

الأمر متوقع

ما هذا الذهول الذي يُرى باديا على وجهه؟

ما هذه الدهشة؟

أوحقا يستغرب؟

أوقد كان يظن أن يجنى الثمر دون أن يبذر الحب؟

هل كان يحسب أن طريقه الذي سلك وسبيله الذي اختار لهما نهاية مختلفة عما يراه؟

أي منطق هذا؟

لقد كان يدرك جيدا هذا المآل ورغم ذلك سلك بإرادته طريقا يلوح في أفقه ما هو فيه الآن

ففيم إذن الدهشة والعجب؟!

تلك هى خلاصة القصة، وإنها كذلك لحقيقة الحياة..

يحفظ الناس بشريات ويذكرون أنفسهم بوعود وأمنيات لكن لم يحاول

كثير منهم أن يسألوا تلك الأنفس لمن هى؟!

لمن هذه الوعود ومن يستحق تلك البشريات؟

في الدنيا تجد المُجِدَّ المجتهد يلمح بطرفه مآل اجتهاده وعاقبة صبره نجاحا وفلاحا فيرنو إلى تلك الغاية ويبذل الجهد للوصول إليها

بينما يقف معدوم الطموح ساكنا متكاسلا ثم يبتغي بعد ذاك التكاسل وهذا التقصير لحاقا بالآخر المجتهد؟!

حاشا وكلا

لا يظلم ربك أحدا

ولا يحابى أو يجامل أحدا

هذا النموذج البشرى يعرفه كل منا ويدرك لا منطقيته التي هي مثال صارخ يوضح خطورة انفصال الظن عن الواقع والتعلق بأهداب الأمل دون العمل

وتلك هي الاستراتيجية الثالثة للتعامل مع الوعود الربانية

فبعد أن تحدثنا في مقال الشهر الماضي عن التعامل مع تلك الوعود أولا بتصديق وثانيا بغير تضييق وبيَّنَّا أن أساس ذلك التعامل يكون بالإجابة على سؤالين رئيسين هما:

- أحق هو؟

- ومتى هو؟

وأوضحنا أن الإجابة النموذجية على هذين السؤالين المحوريين تكون من خلال استقراء النصوص القرآنية والنبوية بالتصديق الكامل واليقين الجازم أولا ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾

والاستبشار مع عدم التضييق والتألي على الله بتحديد ما لم يحدده وبتقييد ما أطلقه ثانيا ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾

يأتي بعد ذلك السؤال المحوري الثالث الذي ينبغي على متأمل الوعود والبشريات الربانية أن يسأل نفسه عن إجابته:

- لمن هي؟

لمن تكون تلك الوعود ومن هو المستحق لهذه البشريات؟

إن وعود القرآن وبشرياته بشكل غالب هي وعود مطلقة لا تقيد بزمان كما أسلفنا والأصل أيضا أنها لا تقيد بأعيان وأشخاص إلا في حالات نادرة كما حدث مع سراقة بن مالك ووعده بسواري كسرى وهي حالة استثنائية لا تنفي أن الأصل المطرد هو طلاقة الوعود وعدم خصوصيتها بأشخاص معينين

لذلك نلاحظ فارقا ظاهرا بين رد فعل السحرة على وعيد فرعون ورد فعل موسى عليه السلام حين التقى الجمعان وقال أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾

فمع اعتبار فارق مقام النبوة إلا أن موسى عليه السلام كان لديه وعد قطعي محدد فيه جزم بأن الله تعالى معه هو تحديدا.. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ

وَأَرَىٰ ﴾،

وأنه لا محالة غالب عدوه

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾

لذلك كان رد فعله يقينا قاطعا في وعد محدد له هو بعينه وفي حياته

هنا قال للمشككين والمهتزين والمرجفين بجزم قاطع: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

قضية منتهية لا يوجد لديه ذرة شك فيها

أما السحرة فلم يكن لديهم مثل ذلك الوعد القطعى المحدد لأعيانهم والذي يقطع لهم من الله بالنجاة الدنيوية من قبضة الطاغية

لكن مع ذلك كان رد فعلهم الصدع بالحق والثبات عليه ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ ﴾ جنبا إلى جنب مع التسليم الكامل لقضاء الله في عزة واستعلاء على الباطل بلا أدنى ذلة أو استكانة أو وهن ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ بل تراهم ثبتوا وأقدموا وأمَّلوا خيرا عند من هم إليه راجعون معلنين: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

ثم أعلنوا الرغبة فيما عند الله والاستبشار بجزائه الذي هو خير وأبقى ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

الخلاصة أنهم لم يجزموا بنجاتهم في الدنيا لكنهم التزموا حدودهم البشرية ولم يتألوا على رب البرية بأن ينسبوا إلى أنفسهم ما لم ينسب لها، أو

يخصوها بخصوصية زائدة، أو يقيدوا وعدا أطلقه الله سبحانه

إلا أنه عند الحديث عن صفات المستحقين فإن تلك الوعود ليست مطلقة

وهي ليست مجاملات أو محاباة لشخوص بعينهم

بل هي خصائص وخصال وأخلاق ونعوت ينبغي أن تكون موجودة في الجيل والطائفة التي يتحقق لها الوعد وتتحقق لها البشرى

لذلك فإنك يا عزيزي القارىء إذا تأملت تلك الوعود ستجدها مخصوصة بصفات ومرتبطة بخصال معينة وذلك في العديد من الآيات القرآنية

ستجد مثلا بعد الحديث عن أولياء الله الصالحين الذين آمنوا وكانوا يتقون تخصيصا لهم بالبشارة في قوله ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

وستجد الأمر بالتبشير مرتبطا بالإيمان والمؤمنين في عدة مواضع من كتاب الله كما في مطلع سورة النمل ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وفي قوله ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وأيضا في قوله ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقوله ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقوله ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وستجده مخصوصا بالمؤمنين أيضا في وصية الله لموسى عليه السلام بتبشير قومه ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وجاءت البشرى كذلك لمن حقق الإسلام لله تعالى كما في قوله ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

وقوله ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

وفي سورة البقرة تلاحظ أن الأمر بالبشرى خاص بالصابرين ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وفي سورة الحج تجد ترابطا بين البشارة وبين مقام الإحسان وذلك في قوله ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

وأيضا في سورة الأحقاف تجد التلازم بين البشرى وبين الإحسان ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾..

والمخبتون كذلك لهم نصيبهم من البشرى كما في قوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾

وهكذا في جُل البشريات والوعود القرآنية

إن لم تكن مخصوصة بشخص أو طائفة بعينها فإنها تكون مرتبطة بصفات وخصائص من حققها استحق أن تشمله تلك البشرى

إيمان وعمل وصبر وإخبات وإحسان وتقوى وإسلام لله جل وعلا

صفات وخصائص حري بمن حققها أن ينتصر ويمكَّن له..

ولأن الجزم بنسبة تلك الصفات لشخص أو طائفة بشرية بعينها يعد نوعا من تزكية النفس المنهى عنها في كتاب الله وسنة رسوله ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾

فإن الجزم كذلك بتحقق الوعود والبشريات الناتجة عن تلك الصفات هو أيضا لون من التزكية والتألي على الله

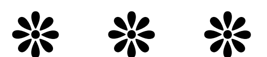
لكن الواجب على المسلم بصدد تلك الوعود والبشريات هو السعي الحثيث لتطبيق أعمالها وتكليفاتها وتحقيق شروطها والبذل الصادق لنيل هذه الاستحقاقات دون أن يقطع بكونها تحققت فيه أو في جماعته البشرية وطائفته المعاصرة

فبين بذل وعمل ورجاء وأمل يدور المؤمن فلا هو اكتفى بآمال مفرغة عن الأعمال أو تعلق بأهداب التزكية الخالية من حقيقة ظنا منه كما ظن قوم

أنهم أبناء الله وأحباؤه ولا هو فى الوقت نفسه فقد الرجاء فى تحقق الموعود وتعامل مع الأمور بنظرة مادية جافة

بل أحسن الظن جنبا إلى جنب مع إحسان العمل وصدق الوعد ساعيا لنيل استحقاقه وبشارته واضعا نصب عينيه سؤالا يسعى جاهدا أن تكون إجابته متجسدة في واقعه وحاله ومآله.

سؤال فحواه: لمن يكون الوعد، وفيمن تتحقق البشرى؟!



٢٦. ما بين الانفعال العقدى والعرضى

تدهشنى دوما وقاحة اليهود واجتراؤهم على الأقصى الأسير وعلى باقى مقدساتنا التى تحت أيديهم القذرة رغم ما يعلمونه من أثر تلك الاستفزازات على قلوب المسلمين وما قد يترتب على ذلك من ردة فعل

ثم لا تلبث تلك الدهشة أن تزول حين أتذكر أن هؤلاء القردة والخنازير ما يتحركون وما ينفعلون إلا بعقيدة رغم بطلانها فهى راسخة متجذرة فى قلوبهم

بينما خصومهم للأسف لا يتحركون ولا ينفعلون إلا نذرا يسيرا وبتحركات وانفعالات عاطفية ومؤقتة لا تلبث أن تخبوا سريعا ويعودوا إلى سباتهم العميق إلا من رحم الله

نعم اليهود يتحركون فى القدس وتجاه الأقصى بعقيدة يستمدونها من أسفارهم المحرفة وتلمودهم الموضوع

و لقد أعلن بن جوريون تلك العقيدة منذ عشرات السنين بقوله «لا قيمة لإسرائيل بدون القدس ولا قيمة للقدس بدون الهيكل»

و عقيدة اليهود فى القدس وارتباطهم بهيكلهم المزعوم أمر لا يخفى على أى باحث

فيكفيه فقط مرور سريع على سفر العدد الإصحاح التاسع عشر أو فى المشنا كتاب الطهارة، باب البقرة ليطالع ما يسميه اليهود بطقس البقرة الحمراء الذى لا يقام إلا فى الهيكل بعد بنائه وبه فقط تزول نجاستهم التى دامت دهورا كما يعتقدون

إن ما يزيد عن سدس التلمود يتكلم عن تلك العقيدة وهو الكتاب الذى يوجب على اليهودى الصالح أن يعيش فى أورشليم ولقد ذكرت أورشليم (القدس) فى التوراة ما يزيد عن ستمائة مرة وهم يعتقدون أن الله يسكنها – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا – ولقد كانت تحيتهم فى زمن الشتات «غدا نلتقى فى أورشليم»

كل ذلك وغيره يدل أن تحركات اليهود فى القدس وانتهاكاتهم المتكررة للأقصى نابعة عن اعتقاد متأصل فى نفوس الكثير منهم.

و الحقيقة أنهم نجحوا إلى حد كبير فى تفعيل تلك المعتقدات وتحويلها إلى مكاسب ملموسة على أرض الواقع

وينبغى لنا أن نعلم أن البون شاسع بين الانفعال والتحرك العقدى والانفعال والتحرك العرضى والنوع الثانى للأسف هو ما يغلب على انفعال المسلمين فى العقود الأخيرة إلا من رحم الله

و الانفعال العقدى يختلف عن الإنفعال العاطفى العرضى فى العديد من الأمور

فالانفعال النابع عن عقيدة يتميز أولا أن له درجة ثبات لها حد أدنى لا يتناقص بالتقادم أو يتذبذب حسب المؤثرات المحيطة والمتغيرات الحادثة

بعكس الانفعال العاطفى أو العرضى الذى يتصف بالنزق والحدة التى تتخذ منحنيات مرتفعة للغاية عند وجود مؤثرات تحركها ثم تهبط درجتها مع الوقت حتى تكاد أن تختفى

و من أجلى الأمثلة على النوع الأول موقف القائد صلاح الدين رحمه الله حينما تلى الحديث المتسلسل بالابتسام على شيخه نور الدين محمود زنكى لكنه لم يتمكن من التبسم كما هى السنة عند النطق بهذا الحديث وقال كلماته التى تنم عن انفعال مترسخ فى القلب وناجم عن عقيدة متأصلة بين جنباته

قال «وكيف أضحك والمسجد الأقصى أسير»

لو تأملنا تلك الكلمات لوجدنا أنموذجا بديعا من نماذج الثبات الانفعالى

فبعد عشرات السنين من أسر الأقصى لم تخفت جذوة الحزن فى قلب صلاح الدين ولم تألف نفسه الأمر الواقع ثم ترجم هذا الانفعال العقدى لعمل بعد ذلك كانت محصلته أن رد الله الأقصى على يدى هذا الفاتح العظيم طيب الله ثراه

أما النوع الثانى أو الانفعال العاطفى العرضى فليس من مثال له أوضح من حال كثير منا حين يتأثر لأيام فى أول المصاب الذى يقع بالأمة ثم

لا يلبث هذا التأثر أن يقصر لسويعات بعد رؤية بعض المشاهد الدموية التى يكون ضحيتها فى الغالب مسلمين ثم ينتهى الأمر إلى تأثر لدقائق أو لحظات لا يترجم إلا لمصمصة شفاة أو دعوة فاترة واختلاجة يسيرة فى القلب ما تلبث إلا أن تذهب فى زحام الاهتمامات والمشاغل الأخرى

و يتميز الانفعال العقدى ثانيا بأنه رصين مطمئن وليس متوترا فزعا كحال الانفعال العاطفى العرضى

و رصانة هذا الانفعال العقدى والطمأنينة التى تميزه نابعة من ارتباطه بأصل الاعتقاد الذى انبثق منه وهو الإعتقاد فى الله جل وعلا الذى بذكره تطمئن القلوب

و لعل موقف الصديق رضى الله تعالى عنه يوم وفاة النبى ﷺ يعد من أوضح النماذج التى نضربها مثالا لهذه الخاصية المميزة للانفعال العقدى

لقد تأثر الصديق لوفاة صاحبه أيما تأثر لكن هذا التأثر الذى ظهر عليه وهو يقبل جبين الحبيب ﷺ ويقول «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا» لم يطغ على رؤيته الرصينة ونظرته المستقرة المطمئنة للأمور بل سيطر على انفعاله وتحرك برباطة جأش تثير الدهشة وقال كلمات تنضح بالنضج والفهم العميق الذى لم يهتز أو يضطرب كما اضطرب من حوله

لقد قال «أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ

يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ»

ثم توجه للنبع العقدى الصافى وجلب منه ما روى به ظمأ الصحب والآل الذين لم يتحمل كثير منهم الخطب الجلل فتلا عليهم قول الله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ وقرأ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ فنشج الناس يبكون

شتان الفارق بين هذا الإنفعال الرصين المحكوم بالشرع الحكيم والمنضبط بالآية والحديث وبين ما نجده فى الانفعال العاطفى لدى البعض من ردود فعل هوجاء قد تضر ولا تنفع وتهدم ولا تبنى وذلك لأن غشاوة العاطفة قد خمرت الأعين وعزلت العقول عن معين الشرع ومصدر الفهم والذى أصله بلا شك يكمن فى الوحى

وحتى لا أطيل أختم تلك الخصائص التى تميز الانفعال العقدى عن العاطفى العرضى بخاصية ثالثة هى من أهم تلك الخصائص إن لم تكن الأهم

فالانفعال العقدى يتميز بوضوح الرؤية ونقائها وصحتها

ذلك أنه بمعزل عن الأهواء التى تنحرف بالمسار عن وجهته السليمة وتودى بصاحب الانفعال الآخر - العاطفى – إلى ما لا يحمد عقباه

و صحة المسار ونقاء الرؤية التى يتمتع بها الانفعال العقدى نابعة من

ارتباطه المحكم بأصول الشرع وثوابته الراسخة التى لا تتبدل ولا تقبل التلون أو الخلط

و لقد حرص النبى ﷺ على وضوح تلك الرؤية ونقائها حتى فى خضم أحداث أدمعت عيناه وأحزنت قلبه

فيوم موت ولده إبراهيم ورغم الحزن والأسى الذى شعر به النبى وظهر فى كلماته التى قالها من بين دموعه «**إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» فقد حرص أن يقول بعدها «**ولا نقول إلا ما يرضى ربنا**» وذلك ليبين أن الحزن ليس مبررا لأى ضبابية تعترى هذا التصور النقى أو تنحرف به عن سبيله القويم

و العجيب أنه فى نفس اليوم الذى قُبض فيه ولده إبراهيم خسفت الشمس فنجد النبى ﷺ يكفكف دمعه ويتحامل على نفسه ويكتم آلام فقد الولد ويقوم ليصلى بالناس صلاة الخسوف ولا ينسى إظهار نقاء المنهج وصفاء الاعتقاد قائلا «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهَّ، وَإِنَّهُمَا لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ. وَإِذَا كَانَ ذَاكَ فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يُكْشَفَ مَا بِكُمْ**» حتى لا يظن أحد أن آيات الله وسننه ومجريات كونه تنخرق لأجل مخلوق فيكون فى ذلك ذريعة لتقديسه أو إنزاله فوق منزلته

فياله من حرص ويالها من رباطة جأش تلك التى تمتع بها الحبيب ﷺ وجعلته يسيطر على انفعالاته وأحزانه ليبين للناس ويحافظ على وضوح منهجهم

و لقد حرص كذلك على إظهار نقاء الاعتقاد وبيان نصاعته يوم «أحد» حين قال أبو سفيان «أعل هبل» فأصر النبى ﷺ أن يجيبه أصحابه بقولهم «**الله أعلى وأجل**» ليظهر أمامهم وأمام الأمة من بعدهم أن أن حمى الإعتقاد لا يحام حوله ولا ينبغى أن يسمح المسلم بذلك بينما تتردد فى أذنه كلمة قدوته «**ألا تجيبوه ؟؟**»

و قد تمتع الصديق بهذه الرؤية السديدة والنظرة النقية والعقيدة الصافية وظهر ذلك يوم الحديبية حين جاءه الفاروق عمر رضى الله عنه يسأله متأثرا ومنفعلا «لم نعطى الدنية فى ديننا» فأجاب الصديق رضى الله عنه بوضوح وسداد رأى «إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق؟ قال عمر: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به، قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال عمر: لا، فقال الصديق: فإنك آتيه ومطوف به».

ما أبعد تلك النماذج الوضيئة عن من طمست الأهواء بصائرهم وأعمت الانفعالات العاطفية أعينهم فما اسطاعوا حال تأثرهم تفريقا بين حق وباطل وصواب وخطأ وأنساهم التأثر ما علموه من المنهج سواءا كان هذا التأثر غضبا أو حزنا أو فرحا فقد تملكهم حتى أخطأوا من شدة الانفعال وصار لسان حالهم ومقالهم كلسان الرجل الذى قال من شدة الفرح «اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»

أعتقد أنه قد آن الأوان لتتربى الأمة على نوع آخر من أنواع الانفعال وأن توجه حركتها توجيها مبناه على الشرع الحنيف ومداره على الاعتقاد الصحيح المستمد من الوحى الإلاهى المنزل والسنة النبوية المطهرة بهذا وحده يستجلب النصر والتغيير والله المستعان



٢٧.أوقد صار يعرف بالرجال ؟؟

سنين طويلة مضت منذ اللحظة التى تلقيت فيها عن أحد مشايخى هذه القاعدة الماسية التى لا تسعفنى الكلمات لوصفها وصفا يكفيها ويقدرها قدرها

أذكر شعورى فى تلك اللحظة جيدا وقد كنت قبلها أعانى من تسلل الشيطان إلى نفسى من مدخل إبراز العيوب والزلات فى بعض إخوانى ومحاولة إيجاد المبررات للتفلت عن المنهج طالما أن بعض أتباعه قد كشفت لى زلاتهم وظهرت لى معايبهم

شعور بالارتياح الشديد

شعور ماتع لا أنساه إلى اليوم ولازلت عند كل موقف يعن إلى ويكشف فيه ستر الله عن أحد إخوانى أحمد الله جل وعلا أن هدانى لهذا المبدأ المريح وتلك القاعدة العبقرية

إنها القاعدة المنسوبة لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فيما رواه عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية نقلا عن ابن الجوزي في كتابه السر المكتوم

قاعدة «الحق لا يعرف بالرجال.. وإنما يعرف الرجال بالحق.. فاعرف

الحق تعرف أهله»

و القاعدة بكل بساطة معناها أنه لا أحد مهما كان حجة على المنهج

فأى رجال - ما دون الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم - هم بشر يخطئون ويصيبون ويعصون ويطيعون ويزلون ويوفقون وهذه الزلات والمعاصى والأخطاء هم فقط من سيحاسبون عليها وليس من كان على منهجهم

المنهج الذى لا يضره أخطاء الأتباع إنما يضره أن ينسب إليه ما ليس منه

حقاهذا هو المعنى الذى تلقيته فى ذلك اليوم

و حينئذ ارتحت حقا

و تعلمت أن أقصد البحر وأن أخلى القنوات

وأن ألزم المنبع وأعرض عما دونه

و اليوم أجد فى نفسى رغبة لأنقل هذا الشعور لإخوانى الذين تهزهم زلات الأفراد وتزعزع ثقتهم أخطاء الأتباع التى لن تنتهى مادام على ظهر الأرض خطاء من نسل آدم عليه السلام

و ليعلم كل من هزته زلة أو زعزعته خطيئة مخلوق حى - علمنا سلفنا أنه لن تؤمن عليه الفتنة – أن ما هم فيه إما ضعف أو تربص

نعم أقولها صريحة وأرجو ألا يغضب منى أحدهم

و ما الضعف إن لم يكن ذلك

و ما الضعف إن لم تكن كلمة تذهب به وأخرى تأتى به ؟

رحم الله الإمام أبا حامد الغزالى إذ يقول «وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق» وقال أيضا «فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس، فلا تغفل الصحابة وعلو منصبهم» الإحياء

و الأخطر أن يكون هذا الاهتزاز عبارة عن تربص أو محاولة لإيجاد مبررات التفلت والنكوص بإقناع النفس أن هذا هو الأصل وأنه ليس وحده المتفلت والأمر هين وهذا كما يقال بالعامية نوع من أنواع «التلصيم»

نعم «تلصيم»

لقد أخبرنا ربنا أنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وأوصانا فقال ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وغير ذلك من الآيات التى لم تدع لأحد هؤلاء المتربصين «المتلصمين» حجة ولم تترك له فرصة ليبرر لنفسه التفلت بفعل الرجال

و كما نكرر دوما المنهج حجة علينا ولسنا نحن حجة على المنهج وقد أبى الله أن تكون عصمة إلا لكتابه وأنبيائه ولم يعطها لأحد غيرهم

أقول هذه الكلمات وأنا حزين لاضطرارنا تكرار هذا الأمر كلما حدثت

مشكلة أو كشف ستر أحد أبناء آدم الخطائين فقامت الدنيا ولم تقعد وبدأت النبرة الحزينة المرتعشة لدى من ينتسبون لمنهج المخطىء بالتوازى مع نبرة الشماتة والتشفى ممن ينتسبون للمناهج الأخرى

و الأمر بسيط وواضح والقاعدة واضحة وتقطع الطريق بيسر على كل ذلك اللغط

الحق لا يعرف بالرجال.. وإنما يعرف الرجال بالحق.. فاعرف الحق تعرف أهله

أقول هذه الكلمات ليس تهوينا من شأن الأخطاء أو تبريرا للمخطئين ولكن تبرأة للمنهج الذى لا يعرف إلا برجال زكاهم الله وأثنى عليهم وأنعم عليهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾

أما نحن !!

الأحياء الخطاءون من بنى آدم فلم ولن نكون أبدا حجة على الحق ومن كان أفضل منا ما يوما ما رأوا فى أنفسهم ذلك

فها هو الإمام مالك –رحمه الله تعالى يقول –: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا فى رأيى فإن وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»

وهذا هو الإمام الشافعى – رحمه الله – يقول: «ما من أحدٍ إلا وتذهب

عليه سنة للنبى أو تعزب عنه فمهما قلت من قول أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ما قلت فالقول قول رسول الله وهو قولى وجعل يردد هذا الكلام»

و غير ذلك مما نقل عن أولئك الأخيار الذين لم يروا أنفسهم حجة على المنهج أو علامات عليه فمن نحن لنرى أنفسنا كذلك

لكن مع كل ذلك يبقى الخطأ خطأ وتبقى المحاسبة واجبة والمسئولية قائمة وخصوصا أنه سيظل من الناس من لا يفهم هذه القاعدة فتنفره أخطاؤنا عن الدين نفسه وإلا ما قال النبى ﷺ لبعض أصحابه «**إن منكم لمنفرين**» ولما أصر أن يبرىء ساحته – رغم أنه لم يتهم – حينما مر الصحابة فوجدوه يكلم امرأة فسارع فى إثرهم قائلا «**إنها صفية**» وفسر ذلك بقوله «**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم**»

و لما أصر سيدنا يوسف عليه السلام على تبرأة ساحته قبل الخروج من السجن بقوله ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾

كل ذلك وغيره يجعلنا أمام مسئولية لا تنفيها القاعدة العظيمة التى صدرت بها مقالى لكنها تتعاضد معها لتشكل التكامل المطلوب منا

فما بين ثقة فى المنهج وعدم تأثر بزلات الأتباع وبين الحرص على عدم فتنة الناس وتحمل المسئولية الكاملة عن مظهر وسمعة الدعوة ينبغى أن يكون هذا حالنا ولسانه يردد ﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ ﴾

٢٨.حوار بأسفل المنبر

ما إن نزلت من على المنبر وهممت بصفِّ الناس للصلاة حتى أمسك بيدي بشدة وقال كلمات متسارعة لم أفقه أكثرها نظرا للهجته غير المألوفة والانفعال الذي كان يتحدث به لكنني فهمت إجمالا أنه معترض على الخطبة

لم أتعجب كثيرا فهذا صار أمرا شبه معتاد وطالما الناس في حالة تنازع أو انقسام فمن الطبيعي أن يعترض عليك البعض ويرفضك البعض الآخر أو على الأقل يرفض كلامك

كان المعترض هذه المرة يرتدي عقالا على سترة إفرنجية وقد ظننته في البداية من الزي واللهجة رجلا من إخواننا الخليجيين وهذا غير معتاد في مدينتنا غير السياحية

تبينت بعد ذلك أنه رجل سيناوي

المهم هدأته وطلبت منه أن نتحدث بعد الصلاة التي كانت قد أقيمت فأفلت يدي وتركني لأصلي بالناس مشكورا

بعد الصلاة جاءني في الغرفة ولم يزل انفعاله متأججا

-طيب معلش هدي نفسك بس عشان أفهم

إيه اللي مزعلك في الخطبة ؟

التقط الرجل أنفاسه الغاضبة ثم كانت المفاجأة

ما فيش حاجة مزعلاه

الخطبة أعجبته والحمد لله

طيب أمال فين المشكلة يا سيدي

رد قائلا: المشكلة أنك لم تتحدث عن الحجاب وزي المرأة المسلمة وهذه هي أولى المواضيع الآن بعد ما رأيته في مدينتكم والمدن الأخرى من تبرج وسفور والمفروض (ولاحظ جيدا كلمة المفروض دي)

والمفروض عليكم أيها الدعاة أن تتحدثوا عن تلك المصيبة في كل خطبة وبعد كل صلاة

لا أنكر تعجبي من النقطة التي أثارت غضبه فقد كانت جديدة علي إلى حد ما حيث اعتدت أن تكون الاعتراضات من هذا النوع هي لماذا تكلمت في كذا أو على النقيض لماذا لم تتكلم في كذا

وكلمة (كذا) هذه كانت دائما تحمل شأنا سياسيا بحتا سواء تناولته بطريقتك أو لم تتناوله فإنك ستواجه باعتراضات أحد الجمهورين

لكنها هنا كانت المرة الأولى التي أواجه فيها باعتراض من هذا النوع وبهذه الدرجة من الفرضية والإلزام

بدأ القائمون على المسجد يدخلون إلى الغرفة تباعا وبدأ نوع من احتدام النقاش بينهم وبين الأخ السيناوي الذي رغم تحفظي على حدته وشدته

أعجبتني غيرته وحميته لتلك الشعيرة وذلك الخلق الذي سماه النبي ﷺ بخلق الإسلام

خلق الحياء

بعد نقاش طويل مع الأخ السيناوي الفاضل حمدت له غيرته ثم حاولت فيه إقناعه أن الدين أكبر وأعظم من أن يتم قصره على شيء واحد هو بلا شك منه لكنه ليس الدين كله وبينت له أن الحكم لا يكون عبر خطبة واحدة فما يدريه إن كان الخطيب تكلم من قبل عن تلك المسألة أم لم يفعل وانتهى الأمر بشكل هادىء وقد سكنت نفسه إلى حد ما خصوصا بعد أن تدخل في النقاش بعض الفضلاء ممن بينوا له أمورا غابت عنه

لكن حديثه قد أثار شجونا

فبخلاف حرصه المحمود وغيرته إلا أن المرء وجد أسئلة تتصدر ذهنه بعد تلك المناقشة واسترجاع مثيلاتها

إلى متى؟!

إلى متى يظل بعضنا وصيا على الآخرين؟!

إلى متى يظن البعض أن من حقهم أن يفرضوا على المرء مساره أو خياراته أو يملوا عليه كلماته ويحاسبوه على قوله بل وعدم قوله؟!

إلى متى يحكم بعضنا على البعض من خلال كلمة أو لمحة أو لفتة ويتناسى أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره وأن التصور لابد أن يكون تراكميا ليتم وضوحه وإحكامه؟!

تلك الأسئلة ليس المعني بها فقط أولئك المعترضون على خطب الجمعة بغض النظر عن أساليب اعتراضهم أو أولئك الناصحين الذين ينبغي على المتجردين قبول نصحهم ونقدهم البناء

لكن عن المتسلطين أتحدث

عن أولئك الذين لا ينفكون عن الاستهزاء بجهد أو اجتهاد الآخرين والتحقير من رؤيتهم وأسلوبهم

عن أولئك الذين لن يقبلوا إلا أن تكون نسخة منهم وظلا لأفكارهم وصدى لأصواتهم

عن أولئك الذين لن يرضوا إلا أن تكون هم

وصدقني يا عزيزي

هناك أناس لن يكونوا إلا أنفسهم فهم على قناعة أن الله لو شاء أن يخلق نسخا متكررة لفعل

لكنه قضى أن نكون مختلفين متمايزين لحكمة يعلمها هو

قضى أن البشر يتكاملون ولا يتماثلون ولعلهم بتمايزهم واختلاف أساليبهم وأفكارهم يصلون إلى صورة أجمل بكثير مما لو كانوا جميعا صورا متطابقة

فانصح ولا تتسلط وكن ناقدا بناءً ولا تكن وصيا متسلطا فإن الله قد جعل للناس عقولا وفهما كما قد جعل لك واحدا وجعل لهم إرادة كما أنعم عليك بمثلها.

٢٩. قولا واحدا

هذا واجب قولا واحدا

وهذا حرام قولا واحدا

وهذه بدعة قولا واحدا

وهذا مستحب بلا خلاف

أحصيت له في دقائق مررت فيها بمجلسه مثل تلك العبارات القوية أكثر من عشر مرات تقريبا

هو شاب حديث عهد بالتزام لم يمر عام على طلبه للعلم وربما لم يكمل بعد قراءة كتابه الأول في الفقه ناهيك عن أصوله

كان ذلك في أحد المساجد بعد انتهائنا من صلاة التراويح برمضان والشاب جزاه الله خيرا قد جمع نفرا من الشباب يعلمهم بعض أحكام الوضوء والصلاة

سعدت بالمشهد للغاية ودعوت للأخ وغبطته على همته وسرني إقبال الشباب عليه ذلك الإقبال الذي نراه كثيرا في رمضان ونفتقده فيما دونه إلا من رحم

لكن ما آلمني هو كثرة ترداده لهذه الجملة ومشتقاتها

قولا واحدا!!

إن نفي البعض لجهد ورأى المخالف بكل أريحية صار منهجا وطريقا نراه للأسف في الكثير من الشباب المتحمس

و العجيب أن كثيرا من تلك المسائل يسوغ فيها الخلاف بل لا أكون مبالغا إن قلت أن بعض ما قال فيه بثقة أنه كذا بلا خلاف وقولا واحدا هي أمور يرى جمهور العلماء فيها بخلاف ما يرى الأخ صاحب القول الواحد أو شيخه الذي لقنه هذا الأسلوب

ببساطة شديدة ألغى الأخ اجتهاد مالك في مسألة وأقصى قول الشافعي في أخرى ولم يعتبر رأى أبي حنيفة قولا في ثالثة وتجاهل قول أحمد في رابعة وهكذا

بل ربما اجتمع أكثرهم على قول رأى شيخه غيره فاعتبر الأخ اجتماعهم كأن لم يكن

هكذا بكل بساطة

أعلم جيدا أن نقل الأقوال وتفصيل المسائل وفقهها المقارن قد لا تناسب بعض المتلقين وخصوصا في بداية الطلب وأعلم أنه للمعلم أن يكتفي في المراحل الأولية بنقل القول الراجح في المسائل لعدم التشغيب على المتلقي وتشتيته وقد يكون اكتفاؤه بذكر الأثر الصحيح أولى للامتثال

لكنني أتكلم هنا عن طريقة تفكير واجتراء غير عادي ينتقل عند

البعض إلى سائر ممارساتهم لتصير ثقافته ثقافة القول الواحد ويصبح دائما في نظر نفسه صاحب الحق المطلق في كل صغير وكبير وكل شاردة وواردة

إنها نظرية احتكار الحقيقة وازدراء كل مخالف واحتقار رأيه وإن لم يصرح بذلك بلسان المقال فيكفيه لسان الحال والجواب الدائم لأي سؤال بـ... قولا واحدا!!

إن من أهم أخلاق العالم والمتعلم التواضع للعلم ومعرفة أن من فوقه دوما عليم وأنه ما أحصى العلم إلا قائله ومن ثم لم يجترىء بهذه الطريقة وقد وسع من هم أعلم من ملء الأرض من مثله أن يقولوا حين لا يبلغهم خلافا في مسألة: لا أعلم فيها خلافا ويزينوا كلامهم في الأمور المختلف فيها بتأكيدهم أن هذا هو الراجح (عندهم)

لكن أن يُنفى اجتهاد المجتهدين وبذل المصنفين وتحقيق الأثبات الراسخين بكل بساطة فهذا مفتتح ما نراه اليوم من البعض من زعم لامتلاك الحقيقة المطلقة في كل أمر حتى لو لم يكن من أمور الإجماع ومن ثم يتم نفيها عن غيرهم وكأنما هي صكوك غفران توزع على من وافقهم وتنزع عمن خالفهم.

وأصل ذلك هو تلك الثقافة التي تتوارث

ثقافة قولا واحدا

٣٠. النظارة

كان من أقرأ الناس لكتاب الله.

بلغ به اتقانه وحفظه أن جلس ليعلم الناس أصول التلاوة، وأحكامها ودقائقها.

ولطالما تحاكى الخلق عن ورعه وزهده وعبادته.

إنه عبد الرحمن بن ملجم!

قاتل سيدنا علي بن أبي طالب رضى الله عنه!

وردت عدة روايات يتبين بمجموعها أن هذا الرجل حين أقدم على جريمته الشنعاء بقتل ابن عم رسول الله وزوج ابنته كان محتسبا تلك القتلة، لدرجة أنه حين اقتيد ليُقتص منه كان لا يشغله إلا أن يبقى لسانه يذكر الله ويتلو القرآن، وورد عند ابن سعد في طبقاته والذهبي في تاريخه أنه ما جزع إلا خوفا من أن يقطع لسانه، وقال: أكره أن أبقى فى الدنيا فواقا لا أذكر الله.

تخيل!!

هذا المجرم، القاتل، الخارجي، الظلوم، سافك دماء أمير المؤمنين علي – بل وقيل أنه ممن أفتوا أيضا بقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهما– لا يشغله إلا أن يذكر الله قبل موته!!

قد يقف المرء طويلا متحيرا أمام هذا المشهد العجيب، وغيره من المواقف المشابهة حين يتلبس الباطل بثياب الحق ويتسربل بعباءته ظاهرا

لكن ربما تزول تلك الحيرة إذا أدرك المرء حقيقة (النظارة!!)

ولست أعني بها واحدة من تلك النظارات التي نعرفها اليوم سواءً الطبية منها أو الشمسية فهي بلا شك لم تكن قد اخترعت بعد!

إنما أعني تلك النظارة التي يرتديها المرء فتصبغ حياته ورؤيته وفهمه بلونها، فلا يرى الأشياء إلا من خلالها ولا يحكم على الأمور إلا بقتامتها التي تحجب عنه تفاصيل وحقائق واضحات بينات لكل من لم يرتديها، تماما كما حجبت نظارة التكفير عن عيني ابن ملجم كل فضيلة لسيدنا علي، وجعلته عاجزا عن رؤية الكثير من الآيات والأحاديث التي تظهر من خلالها بشاعة فعلته.

إنها تلك النظارة التي تتعاظم وتتضخم أحيانا لتتحول دون أن يشعر مرتديها إلى سجن كبير، لا يرى الدنيا إلا من خلال نافذته الضيقة التي يقبع أسيرا خلف قضبانها الباردة.

وأسر الأفكار كثيرا ما يكون أشد إحكاما من أسر الأسوار، ولربما تكون قضبان الجهل والتأول أصلب ألف مرة من قضبان السجون.

لكن سجين الفكرة ربما لا يدرك أبدا أنه سجين!

بل قد يظل حبيسا خلف قضبان تلك الأفكار التى تتملكه، دون أن

يدرك ربما لأعوام أنه كان ينظر إلى الدنيا من خلال نافذة زنزانة تلك الفكرة أو من خلف زجاج نظارتها المعتمة.

وهذا كان حال ابن ملجم وأمثاله في كل عصر..

لقد نظروا إلى الحياة نظرة قاصرة، واعتقدوا اعتقادات باطلة ألبسها كبراؤهم ومضلوهم ثياب الشرع، وصبغوا إجرامهم بصبغتها، حتى تأولوا بها كل شيء وفعلوا تحت أستارها كل قبيح.

وقد تملك بعض الأفكار والتصورات والمشاعر على المرء حياته، فلا يتصور العيش إلا من خلالها، ولا يمكنه التنفس إلا فى أعماقها، حتى إذا هبت عليه نفحة من نسيم نظيف، حبس أنفاسه خشية أن يختنق، كما فعل قوم نوح حينما وضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا!

بل كما فعل الضلال في كل زمان ومكان حينما جاءتهم رسلهم بالبينات، فردوا أيديهم في أفواههم، ورفضوا أن يفتحوا الأبواب والنوافذ ليدخل الضياء إلى القلوب والعقول.

وكثير من الناس للأسف يستسلمون لذلك الأسر ويصرون على ارتداء تلك النظارات التي تلون أحكامهم وتقديراتهم لكل شيء

منها نظارات الحب الوردية التي تزين كل سوءة وتجمل كل قبيح

وهناك نظارات الكراهية السوداء الداكنة التي تنفي كل فضل وتنسب

كل شر لم يُنظر إليه بتلك النظارة القاتمة

وأيضا نظارات التعصب ونظارات الهوى ونظارات الشهوة ونظارات الشبهة

ما أكثر النظارات وما أكثر ألوانها

وفي واقعنا المعاصر تجد ارتداء تلك النظارات الفكرية والأيديولوجية والحزبية والمشاعرية فتغيب الحقيقة، ويموت الإنصاف، وتنتحر الموضوعية، فلا تدرى من أين تستقي خبرا، أو تستوثق من معلومة، أو تتفهم تحليلا.

نفس الأحداث، ونفس الممارسات، ونفس المواقف تجدها في رواية بصياغة، وفى رواية أخرى بصياغة مضادة تماما، وكل فريق يستعمل نفس الحالة أو الموقف فى نصرة فكرته، وزيادة درجة العتمة على زجاج النظارات الداكنة التي يسيطر بها على رؤية أتباعه ومريديه.

ولو أن أحدهم أقدم وقرر يوما أن يخلع النظارة، ليرى الحياة بلونها الحقيقي، فسيدرك حينئذ الفارق الهائل بين وضوح الصورة ونقاوتها بدون النظارة التي لونت حياته دون أن يشعر، حين كان حبيسا خلف زجاجها القاتم، وقابعا بين أسوار سجنها المظلم، الذى لم يفترض ولو للحظة أنه صواب يحتمل الخطأ، وأن غيره خطأ يحتمل الصواب.

لو أنه فقط قبل أن يعتقد ثم يلوي أعناق الأشياء ليدعم اعتقاده علم أنه كان عليه أن يستدل ويسترشد ويستهدي لفوجىء بكم الرحابة التي

كانت غائبة عنه.

لكنه حين يفعل -إذا فعل- فسيعلم عندئذ أن مفتاح هذا السجن كان فى يده طوال الوقت دون أن يلاحظ

فقط كان عليه أن يمد يده ليخلع النظارة، أو أن يدير المزلاج الثقيل لتتفتح الأقفال، وتتحطم الأسوار، وليغمر النور ظلمات السجن الكئيبة.

نور الحق والعلم

بدون نظارة.



٣١. إفاقة بعد مصيبة

فى مجلس كان فيه عمرو بن العاص، رضى الله عنه، وجمع من أصحابه إذ حدثهم المستورد بن شداد، رضى الله عنه، أنه سمع النبى ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**»..

فقال له عمرو بن العاص، رضى الله عنه: «أبصر ما تقول» -أى تبين وتثبت وراجع قولك هل سمعته من رسول الله ﷺ- قال المستورد: أقول ما سمعت من رسول الله قال: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**»..

هنا وبعد تأكد ابن العاص من صحة رواية المستورد قال عمرو رضى الله عنه: أما لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا: «إنهم لأحلم الناس عند فتنة.. وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة.. وأوشكهم كرة بعد فرة.. وأرحمهم لمسكين ويتيم وضعيف..

وخامسة حسنة وجميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك».

أجد نفسي هنا في حالة من الاندهاش وأنا بصدد تأمل هذا الأثر العجيب الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه!

حالة من الاندهاش تسببها عدة جوانب في هذا الأثر لعل من أهمها ذلك القدر من الانفتاح الحضاري المنصف الذي تقطر به كلمات سيدنا

عمرو بن العاص وتلك النظرة الثاقبة التي استطاع أن يلحظ بها جوانب القوة في الأمم ويبصر خصال التمكين الدنيوي التي تؤهلهم لأن يكونوا بين يدي الساعة الأكثر نفيرا والأقوى شوكة

هذا الانفتاح الحضاري المنصف الذي سبقه تبين وتثبت يضبطه ويربطه بالنص الشرعي الصحيح يذكرني بحال بعض أئمة التجديد في عصرنا هذا وكيف كان لديهم من الشجاعة والإنصاف ما يؤهلهم للكتابة والبحث في تراث ونتاج الغير والخروج بالفائدة والنفع الذي لا يضاد ثوابت شرعتنا أو يخالف ضوابط ملتنا الحنيفية السمحاء

من ذلك ما فعله العلامة محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى حيث كان حريصا في كثير من كتاباته على استقاء الفائدة من تجارب الغير حتى وإن كان هؤلاء «الغير» من المعسكر المخالف تماما!

فتجده يكتب يوما ما مقالا في مجلته الزهراء عن «هنري فورد» رائد صناعة السيارات في العالم وتجده يكثر النقول في مقالاته عن جوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي الشهير مستقيا الحكمة من رؤيته وفهمه لمجريات الأحداث التاريخية والرؤى الفكرية

وهكذا..

إن ما فعله عمرو بن العاص في هذا الأثر الجميل يعد في تقديري أصلا لذلك ويعتبر تجربة رائدة في ميدان الإنصاف الفكري ينبغي أن نتعلم منها كيف أن رجلا طالما حارب الروم وانتصر عليهم وفتح الله به بلدانا كانت

ترزح تحت نير جيوشهم كمصر والشام لم يمنعه كل ذلك من أن يستقي الحكمة والفائدة من حضارتهم!

والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها

لقد ركز سيدنا عمرو هنا على خمس خصال في غاية الأهمية إن وجدت في أمة فقد حققت بها شوطا طويلا في مضمار الرفعة الدنيوية والنجاح الأممي

الخصال الخمسة جميعها تحض عليها الشريعة الإسلامية الغراء بينما نجد واقع المسلمين في منأىً بشكل كبير عنها وبدلا من أن نقول: هذه بضاعتنا ردت إلينا نجد الكثيرين ينئون وربما ينهون عن جُل تلك الخصائص والأخلاق

فما الحلم والقوة والثبات النفسي والمسارعة للنصر بعد الهزيمة والكر بعد الفر والرحمة والبر والتكافل الاجتماعي والعدل ونبذ الظلم والصدع في وجوه الظالمين بالحق لدفع ظلمهم إلا خصالٌ وقواعد إسلامية تواترت النصوص الشرعية على الحض عليها وبينما تغافل عنها كثير من المسلمين أدرك غيرهم أهميتها وخطورتها وضربوا في الواقع المعاصر نماذج مذهلة لتطبيقها فبلغوا في مجال الحقوق والعدالة والتكافل شأنا لا تخطئ وضوحه عين متجردة

لكنني أريد في تلك السطور أن ألقي الضوء على تلك الخصلة الثانية تحديدا لأخصها وأقف معها وقفة

«وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة»

إنها خصلة في غاية الأهمية أجد أن الأمة في حاجة ماسة إلى تأملها والنظر في نماذجها العملية المعاصرة

((دعونا لا نفعل ما يفعله الآخرون، ولا نستنسخ ما ينتجون، دعونا لا نقلد «مايكروسوفت» أو نطارد «أى بى إم»، الطريقة الوحيدة لنسبقهم هى عبر التفكير بشكل مختلف)).

كانت تلك الكلمات هى التى غيرت شكل السوق التكنولوجية فى العالم خلال العقد والنصف الأخير!

كلمات قالها «ستيف جوبز» مؤسس أسطورة التفاحة المقضومة الشهيرة والتى تمثل العلامة المميزة لأحد أهم شركات الإلكترونيات في العالم والأب الروحى لأجهزة الاستماع الرقمية (آي بود) وأجهزة الحاسوب والهواتف الزكية وهو أيضا مؤسس شركة «بيكسار» التى صنعت ثورة أخرى فى عالم أفلام الرسوم المتحركة.

تحدث «جوبز» بتلك الكلمات عند عودته في أواخر التسعينيات إلى شركته التى كان قد طُرد منها قبل عشر سنوات بالرغم من كونه مؤسسها حيث لم ترحمه قوانين السوق القاسية وتم إخراجه منها بشكل مؤسف

تأمل حجم المصيبة !!

رجل قضى حياته وصدر شبابه في إنشاء هذه الشركة ثم فجأة يجد نفسه ملقى على قارعة الطريق يعاني من الإفلاس والفشل

مثل هذا الموقف قد يكسر أي إنسان ويدفع به إلى طريق الاستسلام واليأس وربما الانتحار

لكن هذا لم يحدث

لقد أفاق «جوبز» سريعا وأعاد بناء نفسه بعد المصيبة وأسس شركتين جديدتين أعادته إحداهما -وهي «بيكسار»- إلى نادى المليارديرات، مما اضطر شركته القديمة للاستغاثة من جديد بمؤسسها الأول صاحب الرؤية الثورية والعقلية المبتكرة والإصرار الرهيب بعد أن مرت عليها تلك السنوات ثقيلة وكادت أن تُختم بانهيارها أمام منافسها العتيد «بيل جيتس» وشركته «مايكروسوفت».

وهكذا حال أصحاب تلك الروح المتحررة من أغلال اليأس النمطية يفكرون بشكل عملي ومختلف وبطريقة حاسمة وسريعة ودون إنفاق الوقت الثمين في البكاء على اللبن المسكوب وجلد الذات بشكل «ماسوشي» محموم لا يفيد بشيء ولا يصنع تغييرا

لقد بث «جوبز» فيمن حوله تلك الروح الحماسية المختلفة، ولم تمض شهور حتى كان فى الأسواق أحد أكثر أجهزة الكمبيوتر مبيعًا فى التاريخ وهو «الآى ماك» ولقد كان النجاح ساحقا ومختلفا لدرجة أن معدل البيع وصل إلى جهاز كل ١٥ ثانية ثم لم يلبث «جوبز» أن أطلق جهازه الصغير للغاية «الآى بود» الذى شكل نقلة نوعية في عالم التقنيات الصوتية.

بعدها كانت المفاجأة المذهلة وانطلقت هواتفه الزكية التي تعمل بتقنية

اللمس وصار الكمبيوتر يسكن الهواتف المحمولة، وأصبحت التقنيات المبهرة فى متناول الجميع بمجرد امتلاكهم لـ (آي فون)

ثم تلى ذلك ظهور آخر تحفة تكنولوجية قدمها «جوبز» في مؤتمراته الشهيرة وهو «الأى باد».

إن «جوبز» لم يكن مخترعًا، ولم يكمل دراسته الجامعية، وتعرض للفشل أكثر من مرة، لكن الفارق الذى صنعه، والذى جعله يعود كل مرة ليقف على قدميه من جديد مرجعه إلى تلك الخصلة التي دفعته لأن يرفض الفشل ولا يتكيف معه ولا مع شعور اليأس والإحباط، أو يبحث لنفسه عن شماعات ومبررات تسوغ له ذلك الفشل

لقد ظل دومًا يفكر بشكل عملي ومختلف يبث فيمن حوله تلك الرؤية التى لا ترضى إلا بالأفضل.

وهكذا الفارق بين الناجح والفاشل

فالأول يرنو إلى السحاب بينما الثانى منشغل بالأرض مخلد إليها ينفق وقته في البكاء والتعاسة ويستسلم لقيود اليأس وأغلال الإحباط ويضيع حياته في تأمل المصيبة والعويل عليها..

الأول يسمو بين القمم لا يقبل أن يسبقه أحد ولا ينظر إلا للأكمل ولا يقبل المقارنة إلا بالأعلى، بينما الثانى يزاحم الرمم ولا يلحظ إلا من هم أدنى ولا يضره أن يكون متأخرًا فى نهاية الصف ما دام مطمئنًا أن هناك من لم يزل متأخرًا عنه وإن كان فردًا واحدًا

لذا كان من قادوا التغيير في العالم هم أولئك الذين استطاعوا أن يحلموا وأيقنوا أن لديهم القدرة على تحقيق أحلامهم والحماسة والمصابرة والمثابرة اللازمة لتحقيق ذلك في تحد وإصرار وأمل مهما كانت العوائق والعقبات ودون البحث عن شماعات ومبررات خارجية تسوغ لهم الفشل

إنهم أناس أصحاب قلوب قوية قادرة على الحلم ولديها يقين بإمكانية تحقيق هذا الحلم وإصرار على ذلك

أما أولئك الذين لا ينظرون إلا تحت أقدامهم ولا يملكون تلك الحماسة والإصرار ولا القدرة على الحلم ولا الأمل في إمكانية تحقيقه معتقدين دوما أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان فإن أقصى نشاطهم هو تحريك رؤوسهم وإدارة أعينهم ليراقبوا أولئك الذين قرروا أن يتجاوزوهم بسرعة ويفيقوا بعد كل سقطة ونازلة ومصيبة ثم يفكروا ويغيروا

فقط إذا تحرر هؤلاء من قيود اليأس وأغلال الإحباط فلم يفقدوا الأمل قط ووثقوا في إمكانية تغيير واقعهم إلى الأفضل وهرعوا إلى تلك الخصلة وكانوا من أسرع الناس إفاقة بعد مصيبة فحينئذ يرتقون تلك الدرجة في سلم التغيير

وسنة الله في خلقه أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.



٣٢. ولابد للطغاة من سحرة..

ولا بد للطغاة من سحرة!!

سحرة يزينون باطلهم ويحسنون فسادهم وإفسادهم ويجملون بغيهم ويشرعنون بطشهم ويسوقون باطلهم

قد كان لصاحب الأخدود ساحره الذي طالما خدع الناس بألاعيبه وحيله ليعبدهم لمليكه

وكان لفرعون سحرته الذين طالما جمعهم ليسحروا أعين الناس ويسترهبوهم ولطالما فعلوا وجاءوا بسحر عظيم

وإن جريمة ساحر الطاغية لهي أشد وطأة عندي من جريمة الطاغية

ذلك بأن الطاغية قد يُطاع خوفا من سيفه ورهبة من سوطه وانبطاحا أمام جبروته لكن ذلك كله قد يزول لحظة انهيار حاجز الخوف وتمكن الإيمان من القلوب حتى تعلم أنه لن يصيب أصحابها إلا ما كتب الله لهم فيرفعون رؤوسهم في وجوه الظالمين ويصدعون بالحق غير خائفين لوم اللائمين وبطش الطاغين والجبارين ما دام في ذات الله رب العالمين

لكن الساحر حين يزين البغي ويشرعن العدوان ويجمل الفساد فإنه بذلك يصنع حالة من اللامبالاة والتنطع والاستسلام الطوعي بل والاقتناع

والسعادة وربما الانبهار بصنيع الطواغيت ويرسخ تعظيما لهم في نفوس الناس حتى يستمرئون الذل ويتلذذون بالهوان

باختصار الساحر يصنع جيلا ممسوخا من المقتنعين بقمع النار والحديد بل ومن المطالبين بالمزيد والمزيد والفرحين بأنهم للطواغيت عبيد

ويتنوع السحر حسب الزمان والمكان وليس كل السحر حبالا وعصيا أو تعاويذ وأعمال بل إن من البيان لسحراكما صح عن النبي ولتعرفن أهل ذلك السحر في لحن قولهم وتزيين أكاذيبهم

وإن الساحر ليتقنع بشتى أنواع الأقنعة ويتدثر بمختلف الهيئات والأغلفة التي تخفي زيفه وتستر حقيقته

فما بين قناع مثقف وعباءة نخبوي وأصباغ غانية وطلاقة لسان سياسي مفوه وعمامة شيخ سلطان وإمام ضلالة وبهتان يتخفى سحرة العصر

فلا تغرنك يوما أقنعتهم ولا تخدعنك أستارهم ودثارهم وزيف سمتهم وانظر دوما إلى حقيقتهم

حقيقة أنهم يشغلون منصب سحرة الطاغية

وأنهم مهما تقنعوا أو تنخبوا أو تثقفوا أو حتى تعمموا وتسننوا ظاهرا فإن قولهم وفعلهم ومآل صنعهم يثبت لك دائما أنهم

مجرد سحرة...

٣٣. مع آلام الآخرين..

«إن أكثر أنواع الألم التي يمكن أن يتعايش معها الإنسان هي آلام الآخرين»

كانت تلك المقولة من أول ما سمعت أثناء دراستي العملية في كلية طب الأسنان

كنت أتأملها بنوع من التشكك في مستهل حياة يفترض أن تمتلىء بالتعامل مع الألم بحكم المهنة التي أنا مقبل على ممارستها

حين سمعتها من أحد أساتذتي في الكلية كانت في سياق التهوين من شأن تلك المشاعر المتدفقة بالشفقة والرحمة والتي كانت تبدو على وجوه المستجدين والمستجدات على تلك المهنة الصعبة والتي تعد أنات الألم وتأوهات المرضى المساكين خلفية مستمرة لها كأنها موسيقى تصويرية حزينة

يومها قلت لنفسي هذه ليست قاعدة دقيقة بلا شك أو هي خاصة بغلاظ القلوب من البشر واستبعدت تماما أن أكون ممن يألفون آلام الغير ولا يتعاطفون مع أناتهم ولا يرقُّون لتأوهاتهم

وكيف لا أرق لطفل باكٍ أو عجوز متألمة أو ضعيف يأن بأوجاع يرى كثير من العلماء أنها تعد من أصعب الأوجاع التي تصيب الجسم ومن

أشدها قسوة وإيلاما

لكنني كنت واهما

يبدو أن المقولة الصادمة صادقة إلى حد بعيد

ويبدو أنني بالتدريج ودون أن ألحظ قد تعايشت فعليا مع آلام الآخرين

لم أدرك ذلك تمام الإدراك إلا حينما أصابني ما أصابهم واضطررت لأن أجلس مجلسهم وأتعرض لما يتعرضون إليه

طبعا لم تكن المرة الأولى التي يصيبني فيها ألم في أسناني لكنها كانت الأقسى بلا منازع

كانت الأقسى لدرجة لم تفلح في تخفيفها أعتى المسكنات التي تجرعتها وابتلعتها بل والتي اضطررت لحقن نفسي بها حين لم أجد من يحقنني

فعلا كانت آلام لا توصف بلغت درجة كدت أسقط مغشيا علي في إحدى هجماتها

كان التوقيت صعبا ولم يكن زميلي الذي يعالج أسناني متاحا ولا حتى غيره من الزملاء وكل خبراتي الدوائية كانت قد عجزت أمام هذا الألم الكابوسي

للأسف صدقت فيّ المقولة وفوجئت أنني لم أكن أتصور لحظة أن مرضاي قد يعانون لهذه الدرجة

لم أكن أنتبه بشكل كاف حين يقولون أن المسكنات لا تفعل شيئا
كنت أحيانا أقول لنفسي لعل احتمالهم ضعيف أو ربما هم يبالغون
للأسف تعايشت مع آلامهم ولم أشعر بها حقا حتى تألمت بنفسي
مهما بلغ وصف الألم فلن يشعر به إلا من تألم

قد يبدي المرء تعاطفا ورحمة لكن الفارق لم يزل كبيرا بين من ذاق وبين من لم يذق

وإن الألم البدني على قسوته قد يكون أحيانا أهون بكثير من آلام النفس
وتلك الأخيرة للأسف هي أكثر ما يتعايش معه الناس

آلام على قسوتها وشدة وطأتها غير ملحوظة ربما لا يصاحبها تأوه أو صراخ لكنها تدمي قلب المتألم وتمزقه من الداخل

ومهما بلغت فصاحة عبارات المواساة وسخونة عبرات التعاطف فإنها لا تكفي لتسكين آلام أم ثكلى أو قهر مظلوم بُغي عليه وامتهنت إنسانيته واغتصب حقه أو انكسار يتيم فقد أما طالما آوى إلى كنفها في ليلة ظلماء ليجد دفئا لن يطويه بعد اليوم

تلك آلام ليس لها من دون الله كاشفة وليس لوجعها من دون تثبيته وتخفيفه مسكنات أو مهدئات

لكنها بلا شك تزداد حين لا تجد المواساة والتقدير المفترض وربما تتضاعف وتتفجر حينما تجد العكس

حينما تجد استهانة وعدم اكتراث أو تحقيرا وتهوينا من شأنها

لذا قد يرسل الله مذكرا أو منبها لتلتفت

ولتتأمل ولتُقَدِّر ولا تنسيك نعمة العافية أن هناك من يتألم

لكي لا تغفل وتألف الألم فلا تقدره حق قدره أو يأتي عليك يوم تستخف به وتهون من شأنه

ولتعتذر وتتأسف إن كنت قد قسوت يوما ولم ترحم أو استهنت به وقللت من وقعه ولم تعرف ذلك المعنى

معنى آلام الغير

تلك الآلام التي لا يعني عدم شعورك بها أنها ليست موجودة

أو أنها أسهل

فقط لأنها آلام الآخرين



٣٤. يرحمكم من فى السماء..

كيلو البطاطس بكام يا عم الحاج

ب ٧ جنيه

طيب ممكن تدينى نصف كيلو بـ ٣.٥ لأن مش معايا فلوس تكفى

نظر إليه البائع باحتقار وصاح به بغلظة: يا عم غور هى ناقصة شحاتين على آخر اليوم علي الطلاق أرمى البطاطس على الأرض وما بعهاش فرط

من خلف الرجل ظهرت طفلة امسكت بيده وهى تبكى بكاءً مكتوما

من بين عبراتها قالت: يللا يا بابا مش لازم نتعشى النهاردة

نظر إليها الرجل بحزن عميق

ثم انهمر سيل دماء من أنفه وفمه وفي لحظات سقط بلا حراك

تجمع المارة حول الرجل ولم تمض دقائق حتى نزل أحد الأطباء من عيادته المجاورة وبعد كشف سريع على الرجل نظر إلى الأهالي المجتمعين وأعلن وفاة الرجل

الشاهد العيان الذي روى تلك الواقعة منذ أسابيع أخبر أن سبب الوفاة كما تبين بعد ذلك هو ارتفاع شديد في ضغط الدم تسبب في نزيف

داخلي أودى بحياة الرجل

لا شك أن سبب ارتفاع الضغط هو ذلك القهر الذي شعر به الرجل

لقد مات حسيرا وهو يطالع الدموع في عيني طفلته الكسيرة بعد أن لم يتمكن من توفير جنيهات بها يشتري لها ولأخواتها عشاء

مات وقد شاهدت ابنته ذلته بين يدي إنسان لم يرحم حاجته

وكم من فقير ينتظر دوره في تلك (المطحنة) التي لا يشعر بها كثير من الناس

لحظة قاسية كمثل هذه اللحظة تنكسر فيها كرامته وتوطأ فيها عزته ويعجز المرء عن التحمل

لم يجد من يرحمه في الدنيا فصعدت روحه إلى أرحم الراحمين

إن المتابع للحالة الاقتصادية المصرية منذ سنوات طويلة وليس فقط الآن يدرك ببساطة أن هنالك عنصرا رئيسيا وقيما محوية تعد من أهم أسباب (الستر) الذي جعله الله سببا لتستمر حياة أكثر من ربع المصريين ممن لا يختلف حالهم كثيرا عن هذا الرجل المسكين ويمثلون نسبة من هم تحت خط الفقر طبق الآخر بيان للجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء منذ أسبوعين تقريبا

هذا العنصر الذي يساعد بشكل رئيسي في (ستر) حياة هؤلاء هو العمل الخيري وتلك القيم هي قيم البر وصنائع المعروف والتراحم

والتكافل بين الناس

قيم تعتبر من أهم معاملات دعم الفقير في صراع البقاء الذي يعد سمة للحياة في بلادنا العامرة أو التي كانت عامرة

يندرج تحت مصطلح العمل الخيري كل أنواع البر والإحسان سواء كانت مؤسسية أو فردية

فالجمعيات خيرية ومؤسسات الكفالة ولجان الزكاة في المساجد الأهلية أو الرسمية والمنفقون الجوادون من أغنياء الناس أو حتى من بعض متوسطي الحال الذين نذروا حياتهم للدلالة على الخير والسعي به بين الناسكان أولئك هم العمود الرئيسي -إن لم يكن الوحيد- الذي تقوم به حياة هذا الجزء الكبير من الشعب المصري والذي لم تلتفت إليه الدولة والأنظمة التي مرت عليها ولا أعتقد أنها ستلتفت حتى إشعار آخر

المشكلة التي أريد مناقشتها في هذه السطور هي تلك الشروخ الخطيرة التي اعترت ذلك العمود مؤخرا والتي تكاد أن تنقضه وتسقطه تماما

شكى لي كثير من الأصدقاء القائمين على تلك المؤسسات الخيرية التي يعد بعضها شهيرا مشهودا له بدور رائع في ذلك المجال أن هزة زلزالية رهيبة تمر بهم في الشهور الأخيرة وتهدد استمرارهم في كفالة الأسر التي يتولونها

هزة تتمثل في عجز شديد في الموارد قد أصابهم مؤخرا

كثير من المنفقين والمتبرعين توقفوا عن التبرع ومن لم يتوقف قلل من عطائه بنسبة كبيرة

هالني الأمر فبدأت في تتبعه واستقصائه قدر وسعي فوجدت مثل تلك الشكاوى تتكرر على مسامعي بشكل يكاد يكون متواترا ومع مؤسسات وجمعيات خيرية لا توجد لها أي علاقة لا بأحزاب ولا بجماعات بل ربما يكون القائم ونعليها مختلفين فعليا مع تلك الجماعات والأحزاب

لكن العنصر المشترك أنهم جميعا يشتكون من ذلك العجز

في تقديري تعد تلك الهزة وذلك العجز في المواد الخيرية أحد آثار حالة التردي والاستقطاب السياسي التي نمر بها والتي يعد تسربها إلى العمل الخيري من أخطر الأمور على الفقير والمسكين الذي لا يشعر به أحد وربما لا يدرك كثيرا من أبعاد الصراع ولا تهمه كثيرا تلك الأحداث الدائرة من حوله طالما هنالك أفواه جائعة يتفطر لها قلبه كلما تذكر أنها تنتظره آخر اليوم ليطعمها وأنه لا يملك ما يسد به رمقها

ذلك المعدم العاجز عن العمل الذي لا تأتيه إعانة بطالة

وعائل الأسرة الضخمة الذي لا يغطي نفقات أسرته حتى من نصف الشهر ذلك الراتب الزهيد الذي يتلقاه مقابل وظيفته الأساسية بالإضافة لعمله بعد الظهر

أو تلك المرأة الغلبانة التي لا تملك إلا قصعتها تضع فيها كل صباح

بضعة حزم من الخضروات في مجموعها لن تأتي لها في آخر اليوم إلا بجنيهات معدودة ربما لن تكفي لسد أفواه الأيتام القابعين في حجرتها الضيقة

هؤلاء ومن على شاكلتهم لن يهتموا بحاكم أو دستور ولن يصيب أغلبهم حد أدنى من الأجور لأن أغلبهم فعليا لا يتلقون أي أجور

وهؤلاء هم من يعانون الآن بسبب عجز الجمعيات الخيرية وأهل البر والإحسان عن مساعدتهم في الوقت نفسه الذي تتغول فيه الأسعار بشكل محموم لا أحد يدري إلى أين سيصل

إن هذا العجز في قدرة ما تبقى من المؤسسات الخيرية له أسباب وعوامل لا شك أن من أهمها تردي الحالة الاقتصادية ونقص السيولة حتى لدى متوسطي رجال الأعمال الذين كانت تلك المؤسسات تقوم على تبرعاتهم وزكوات أموالهم وصار بعضهم يقترض اليوم نفقات بيته

لكنه ليس السبب الوحيد

دعونا نتحدث بصراحة أكثر

إن الكراهية المتبادلة والتشكك المستمر وربما الرغبة في الانتقام تعد أسبابا رئيسية في هذا العجز الخيري وإمساك اليد عن الإنفاق

وهذا للأسف من جميع الأطراف

فما بين شائعات استغلال المؤسسات المستقلة لأموال الزكاة والصدقة

في الشأن السياسي وامتناع الكثيرين من أصحاب الانتماءات السياسية المخالفة أو المغايرة أو حتى من غير أصحاب الانتماءات عن إعطاء تلك المؤسسات خشية أن تؤول للإخوان وما بين امتناع في المقابل من بعض المنتمين للتيارات الإسلامية عن تلك النفقات بسبب شعورهم بالإقصاء والكراهية ممن كانوا يوما ينفقون عليهم ويكفلونهم حتى بلغ الأمر ببعضهم أن أطلقوا دعاوى بمنع الأضاحي هذا العام ودعوات أخرى على نفس النسق ناقشناها في وقتها وتم التراجع عنها بفضل الله

لكن في الحالتين يصعب الآن أن تغير تلك المشاعر أو تزيل تلك الشكوك والتربصات المتبادلة

وفي النهاية الفقير غالبا هو ضحية لا ذنب لها

وهو الذي لا يعنيه كل ذلك وربما لا يدركه

وهو الذي لم يكلفنا الله أن نعقد له امتحانا فكريا أو أيديولوجيا لنعطيه

بل كلفنا أن نرحمه ومن لا يرحم لا يُرحم

لذلك أدعو من خلال هذا المقال كل من لم يستطع تجاوز شكوكه ومشاكله السياسية والأيديولوجية ألا يكون قراره هو التوقف

فليبحث عن مؤسسات أخرى يثق بها أو لينزل هو بنفسه ما دام لا يستأمن تلك المؤسسات التي كان مندوبوها يأتونه حتى بابه وأن يلمس حاجة الفقير على أرض الواقع وأن يواسيه بماله في هذا الشتاء القارس

وذلك الغلاء الفاحش فهو في النهاية لم يزل مكلفا بالبر والعطاء

وأما إخواننا من أبناء التيارات الإسلامية فأقول لهم ما قاله الله للصديق رضي الله عنه وقد أوقف نفقته على رجل كان ينفق عليه أعواما بعد أن خاض في الإفك وتكلم في عرض ابنته مع من تكلم فقال الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

إن هذا في تقديري من أهم المحكات الذي تظهر حقيقة الصدق والإخلاص والعمل المتجرد لله وحده وليس لأي مصلحة دنيوية

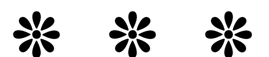
فلتكذبوا عمليا اتهامات التجارة بالدين التي يرمونكم بها ولتتجاوزوا فكرة العقوبة الجماعية التي تعانون من مثلها وليظل الأصل هو العطاء والخير ما لم تتأكدوا أن المتلقي فعليا قد استحل الدماء أو شارك في الظلم والقتل

لتكن لنا أسوة في نبي الله شعيب عليه السلام إذ عامله قومه بالعداوة والبغضاء والشقاق وعلم مشاعرهم تلك تجاهه لكنه مع ذلك ظل حريصا عليهم ولم تغادر نفسه الرغبة في الخير لهم ولم يتحول عداؤهم له وبغضهم إياه إلى رغبة انتقامية أو نزعة عقابية بل ظلت مهمته الأساسية ورسالته الرئيسية ماثلة أمام عينيه فلم تكن قضيته شخصية ولم يجعل ذاته محورا للمعاملة مع قومه ولم يعتبر عداوتهم إياه وشقاقهم له سببا كافيا لإنهاء

رسالته التي يتعبد بها لربه بل استمر الخطاب الحسن والموعظة الحكيمة التي تقطر حرصا على من يعادونه وذلك يظهر في كلمته الخالدة لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾

ولتكن القاعدة والنية التي ينطلق منها الجميع على اختلاف توجهاتهم في معاملة الفقير والمسكين تلك المستمدة من الحديث النبوي الجامع

حديث: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء



٣٥. فهلا نملة...

«فهلا نملة واحدة؟»

كانت تلك معتبة ربانية وجهها الله جل وعلا لأحد أحب خلقه إليه وجهها لنبي من أنبيائه!

القصة بتمامها وتفاصيلها ذكرها النبي ﷺ وأورد رواياتها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما

وتدور أحداثها في زمان سابق لعصر رسولنا حيث نزَل نبيٌّ منَ الأنبياءِ تحتَ شجرةٍ، فلدَغَتْه نملةٌ، فأمَر بجهازِه فأُخرِج من تحتِها، ثم أمَر بقرية النمل فأُحرِقت بالنارِ

هنا صدرت المعتبة الربانية ونزل الوحي الإلهي يلوم ذلك النبي على تلك العقوبة الشاملة قائلا: «أحرقت أمة من الأمم تسبح الله» ثم ختمت المعتبة بتلك الجملة التي صدَّرت بها مقالي:

فهلا نملة واحدة

أما كان يكفيك أن تعاقب تلك النملة التي آذتك بدلا من أن تعمم عقوبتك على سائر جنسها؟!

هو سؤال استنكاري مختصر يبين قاعدة عظيمة كثر ذكرها في الكتاب والسنة

قاعدة تضيء بالعدل وتسمو بالإنصاف وتتألق بالحكمة المفتقدة بين كثير من الناس مع بعضهم البعض وليس مع نملة

مجرد نملة

إنها تلك القاعدة القرآنية التي تكررت بنفس اللفظ خمس مرات في كتاب الله

قاعدة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

ذلكم المبدأ المنطقي البسيط الذي هو على الرغم من بساطته ووضوحه وبدهيته صار يغيب عن أذهان كثير من الناس اليوم فيعتمدون خطاب الجمع والتعميم ويختارون ثقافة السلة الواحدة التي هي ثقافة مريحة بلا شك لكنها راحة الاستسهال واطمئنان التنطع والكسل

فلماذا ينفق الظالم شيئا من وقته وفكره في التفصيل والإنصاف بينما هو يستطيع أن يلقي الجميع في سلة واحدة و(يخلص)

وإن ذكرته بأنه ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وأن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ و«إن أعظمَ الناسِ فريةً الشاعرُ يَهجو القبيلةَ بأسرِها» وسائر تلك الأدلة القرآنية والنبوية الناصعة التي تبرق بنور الإنصاف والعدل فإن تذكيرك هذا سيصطدم بحواجز

مصمتة وضعها على عينيه مروجو تلك الثقافة

ثقافة السلة الواحدة والتعميم المقيت ومبدأ السيئة تعم والعقوبة على المشاع

ولو أتعب أولئك المستسهلون ذلك العضو الذي وُضع في جماجمهم وأمروه بالتفكير هنيهة في مآل تلك الطريقة لحقروا أنفسهم ولربما لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك على سطحية رؤيتهم وسماجة مبدأهم ثم لا يلبث ضحكهم إلا وينقلب إلى بكاء حين يكتشفون مدى الظلم والغبن الذي دفعهم إليه شنئان قوم.

حين يتفكرون للحظات كيف يحاسب كل أسمر على خطيئة من يشاركه لونه وكيف يعاقب كل أشقر على جريمة ارتكبها شبيهه ولماذا يُلام سمين على كل ذنب اقترفه سمين مثله

مشهد هزلي هو لكنه للأسف يحدث يوميا

مجرد أن تسمع أو تقرأ لإنسان يتكلم مهاجما مخالفه بصيغة الجمع قائلا: أنتم فعلتم وسويتم تعلم حينئذ أنك بصدد أحد أبناء تلك الثقافة

ثقافة التعميم المريح ومبدأ امتداد العقوبة

ذلك المبدأ الذي حذر منه يوسف عليه السلام بكل وضوح حين عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلا من أخيهم بنيامين فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾

وأيضا قالها ذو القرنين حين استنجد به أقوام ليعاقب ظالميهم فقال ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾

فقط من ظلم وأخطأ..

هذا هو الأصل وتلك هي القاعدة الشرعية الواضحة

حتى على مستوى الأعراف البشرية الطبيعية -باستثناء الحقب الفاشية والأمم القائمة على التطهير العرقي والإبادة الطائفية- فإن رفض ذلك مبدأ التعميم الجائر هو الأصل

بل إن هناك دولاً تعد ذلك الخطاب ومآلاته نوعا من التمييز والعنصرية وربما تُخضع مرتكبيها لعقاب شديد يردعهم عن هذا الظلم المقزز والأحمق في الوقت نفسه

بينما المنصفون في كل زمان ومكان لا يجرمنهم شنئان ولا يستخفنهم بهتان ولا يعممون طغيان بل يفصلون ويميزون ويفرقون بين الصالح والطالح والمحسن والمسيء ويرفعون دوما ذلك الشعار القرآني الجليل ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ ولو افترضنا جدلا وقوع الخطأ من أي مخلوق غير معصوم فإن المحاسبة تكون من نصيب مقترفيه والعقوبة تكون للنملة الشاردة لا لقريتها كاملة

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٣٦. قد مت مشتاقا إلى بيته

- «بلغ ربي مني التحية وقل له أني قد مت مشتاقا إلى بيته»

كانت تلك الكلمات هي آخر ما سمعه الحاج عثمان قبل أن ينطق صديق عمره الشهادتين ثم يسلم الروح

الحاج عثمان هو رجل بسيط من أواسط أفريقيا -تحديدا زامبيا- وكان الرجل قد قرر هو وخمسة من إخوانه في منتصف القرن العشرين أن يحجوا بيت الله ويجاوروا في رحابه مشتاقين إلى حرمه المقدس

لم يثنهم عن تلك النية كسل ولم يخفف ذلك الاشتياق طول مسافة أو قلة ذات يد ولا حتى مخاطر طريق

- نحن في ريعان شبابنا وفي ذروة عنفواننا فإن لم نخرج الآن لتلك الرحلة فمتى؟!

- أوبعد أن يهن العظم ويضعف البدن ويخور العزم؟!

- لا والله بل نخرج الآن ونعقد العزم ونبتغي من الله العون ونستعين به على قلة الزاد ووعثاء السفر والظن فيه جميل وهو الرزاق ذو القوة المتين

هكذا دار الحوار بين الأصدقاء الأفارقة الذين خالط الشوق قلوبهم وهوت إلى بيت الله المحرم أفئدتهم

وهكذا اتخذوا القرار

سيحجون سيرا على أقدامهم وسيستعينون بالله ربهم في رحلتهم الطويلة من مجاهل وأحراش أفريقيا الخمسينات إلى أرض الحجاز ومهبط الوحي ومهد الرسالة

لن تكون الرحلة سهلة ولن يكون الزاد ميسورا

سيضطرون للوقوف في القرى والمدن التي يمرون بها بين الفيافي والجبال والغابات والمستنقعات

وسيلجأون إلى كل قرية أياما ولربما شهورا ليَجِدُّوا السعي ويكدوا ويكدحوا لتحصيل زاد السفر ومؤونة الرحلة حتى تنفد فيقفوا من جديد عاملين وكادحين بربهم مستعينين

طالت الرحلة ليالي وأياما ساروا فيها عازمين وبمخاطر السفر غير آبهين

سقط منهم عبر شهور سيرهم الواحد تلو الآخر

هذا بلدغة حية

وذاك بضربة شمس

وثالث بملاريا حتى لم يتبق إلا الحاج عثمان وصديقه

هاهما على متن عبَّارة تمخر بهم عباب ما سموه حينئذ ببحر جدة

وها هي جدة تلوح في الأفق لكن يبدو أن صديق الحاج عثمان لن

يتمكن من الصمود أكثر من ذلك

ها هو يلفظ انفاسه الأخيرة بعد رحلة دامت عامين ونيف كان الشوق فيها حاديه والحب قائده والاسترضاء بغيته ومنتهى أمله

خرجت منه تلك الكلمات على بساطتها تحمل كثيرا من عميق المعاني وصادق المباني

بلغ ربي مني التحية وقل له أني قد مت مشتاقا إلى بيته

يالها من زفرة محب وتنهيدة مشتاق صادق دلل على صدق حروفها بعمله وسعيه وها هو يجود في نهاية رحلتها بنفسه غير نادم ولا مستكثر لعمله

إنها تلبية عملية لنداء إبراهيم عليه السلام

ذلك النداء الذي لم يخفت سطوعه رغم مرور القرون

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

تلبية بالجوارح والأفعال وبالنفوس والأموال تصنع مشهدا مهيبا على ظهر ذلك المركب بعد تلك الرحلة الطويلة والشاقة التي لم يبلغ نهايتها إلا عثمان

عاش الحاج عثمان طويلا بعد ذلك المشهد المهيب الذي أسلم فيه صديق عمره الروح بين يديه

مكث الحاج عثمان مجاورا بيت الله الحرام عقودا روى فيها قصة أصحابه الذين هوت أفئدتهم للبيت وتاقت أنفسهم الشابة إلى تلبية نداء ربهم فلبوا بأرواحهم قبل ألسنهم

تلك القصة ومثلها كثير لرجال ونساء هوت أفئدتهم إلى البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا

رجال ونساء لبوا النداء وتعلقت قلوبهم بالسماء فلم يبخلوا بغالٍ ولا نفيس ليبلغوه من كل فج عميق

فلئن حُرم العبد فى هذه الأيام المباركة أعظم أعمالها وهو حج بيت الله الحرام ليس أقل من أن ينافس الحجيج والعمَّار فى نفسياتهم المتوقدة وإقبالهم الجميل

إقبال يرفعون فيه شعار «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»

«لبيك إله الحق لبيك وسعديك والخير بيديك والرغباء إليك والعمل»

«لبيك حقا حقا تعبدا ورِقًّا»

«لبيك مرهوبا ومرغوبا إليك»

لبيك...

ألا فليلبِ الماكث بقلبه وليرفع شعار الكليم عليه السلام وإن كان فى قعر بيته قائلا ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

٣٧. لماذا هو الأعظم ؟

سؤال دائما ما يجول بخاطرى حين يأتى علينا يوم النحر وأتذكر حديث حبيبى ﷺ «**أعظم الأيام عند الله يوم النحر**»

لماذا هو الأعظم؟

لم يقلها النبى ﷺ عن عرفة ؛ ذلك اليوم المهول الذى أخذ الله فيه عهد الفطرة على بنى آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم فقالوا بلى شهدنا

لم يقلها النبى ﷺ عن عاشوراء ؛ ذلك اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون وفرق له البحر فكان كل فرق كالطود العظيم وأغرق فرعون وآله المجرمين الآثمين

و لا قالها عن أى يوم من سائر أيام الله وما أعظمها جميعا

لكن الأعظم بلفظ من لا ينطق عن الهوى هو ذلك اليوم

يوم النحر

- هل لأنه يوم الحج الأكبر الذى فيه أكثر مناسك الحج من ذكر الله عند المشعر الحرام ورمى للجمار وإهداء للهدى وإفاضة وسعى ؟

ربما

- أم لأنه يوم بر وإطعام وصدقات وصلة أرحام ؟

ممكن

- هل لأنه خاتمة أفضل أيام الدنيا أيام العشر الأول من ذى الحجة التى ينافس فيها العاملون للأعمال الصالحة المجاهدين فى سبيل الله ؟

و ما المانع

كل ذلك وغيره ربما يكون من العلل المنطقية لفضل هذا اليوم العظيم لكننى أرى أن أوقع الأسباب مرتبط بمسمى اليوم نفسه

النحر...

ذلك العمل الذى يميز هذا اليوم بلا منازع وما تقرب أحد إلى الله بشىء فى ذلك اليوم مثلما تقرب بهذه العبادة ومن وجد يسرا فلم يتعبد بها فلا يقربن مصلانا كما ثبت عمن قال له ربه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾

و قضية النحر ليست فقط فى النسك وإهراق الدم قربانا لرب العالمين وهى كبيرة إلا على الطائعين المستسلمين ولنا فى بنى إسرائيل العبرة حين أمروا بذلك فماطلوا وجادلوا ثم ذبحوها وما كادوا يفعلون !!

لكن المعنى الأهم والقيمة الأخطر تقع فى رمزية الفعل نفسه ولا تتبين إلا عند إرجاعه إلى أصله الذى بدأت به تلك السنة وشرعت به هذه الشعيرة

إنها التضحية

تلك القيمة التى بدأ بها الأمر كله

حينما هبَّ نبى الله إبراهيم عليه السلام من نومته وقد ثبتت الرؤيا واستقر الوحى ورؤى الأنبياء حق

لقد صدر الأمر بالتضحية وجاء موعد البلاء المبين

أوّه يا إبراهيم يا أيها الحليم الأواه المنيب

بعد كل تلك البلاءات المتتابعات من جفوة الأهل وإلقائهم إياك فى برد الجحيم وارتحال فى البلدان أليم ومراودة لزوجك من أفاك أثيم وتركك لذريتك فى واد غير ذى زرع عن الماء عقيم

بعد كل ذلك يأتى البلاء المبين وتكون وولدك عند حسن الظن يا إبراهيم

لقد أقدم الخليل على تلك التضحية التى لا توصف وقال الكلمات لولده الذى طالما انتظره وها هو قد بلغ معه السعى واشتد عوده وآن الوقت ليكون له سندا وعونا فإذا به يؤمر بذبحه

ترى كيف كانت مشاعره فى تلك اللحظات وهو يتفرس فى ملامحه وينظر إلى قسمات وجهه الذي طالما اشتاق إليه ؟!

كيف كان حال قلبه المتدفق بمشاعر الأبوة الحانية وهو يردد على مسامعه ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾

فقال الولد الصالح الذى ورث عن أبيه الخليل أدبه مع الرب الجليل ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

فلما أسلما وخضعا واستسلما ورقد الغلام على وجهه وصار للأرض

الجبين ولامس العنق السكين رفع البلاء المبين وجاء الفداء من الكريم وقال ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

هذا المشهد الذى يحمل أسرارا عميقة ومشاعر يعجز القلم عن وصفها تلخصه كلمة واحدة

التضحية

تضحية ربما لم يعرف العالم مثلها

قد يجوع المرء ليشبع ولده ويتحمل البرد ليدفىء ابنه وقد يحرم نفسه من اللذة والمتاع ليهنأ فلذة كبده

أما والد يقدم على ذبح ولده امتثالا لأمر مولاه ودون لحظة تردد !!

إن هذا لشىء عجاب

و بيده هو وليس بيد غيره ورغم ذلك يقبل ويقبل الولد وكأنما يقولان للعالم بلسان الحال: لا نقدم شيئا على تعظيمنا لله لا شىء يقف بيننا وبين مراد الله

لن يعطلنا عن إرضائه وامتثال أمره شىء ولو كان أقرب الناس إلى قلوبنا وفلذات أكبادنا

هذا فى تقديرى أهم معنى ينبغى أن يستقر فى قلوبنا ونحن نقدم على هذه القربى والأضحية

معنى التضحية

المعنى الذى لا يستقر إلا فى قلب المعظم

و لذا أجدنى أميل إلى أن هذا السبب أن اليوم هو الأعظم لأنه يوم التعظيم

يوم الإعلان والصدع بهذه القيمة

أنه لا شىء ولا شخص ولا محبوب ولا مرغوب ولا مرجو أعظم فى قلبى من الله وأننى على استعداد لأن أضحى بكل شىء فى سبيل رضاه

لهذا استحق أن يكون الأعظم والله تعالى أعلى وأعلم

والتضحية فى الحقيقة هى نتيجة وليست أصلا

الأصل هو التعظيم وحينما يأتى التعظيم تأتى التضحيات والمجاهدات وتظهر البطولات وتتحدد الاختيارات فالتضحية قرينة التعظيم

و ما من مضح يضحى إلا إن كان معظما لما يضحى لأجله فتهون بالمقارنة قيمة أى شىء يضحى به حتى لو كان ولده !

أو أحب ماله إليه كما في فعل سليمان عليه السلام حين شغلته الصافنات الجياد عن ذكر ربه فطفق مسحا بالسوق والأعناق وذبحها قربانا إلى الله معلنا أنه لن يقف شىء بينه وبين طاعة مولاه

بل حتى لو كانت نفسه

و لذا كانت عبادات التضحية أعظم العبادات لأنها أوضح الأدلة على وجود هذا التعظيم

فالجهاد ذورة سنام الدين وهو جهد النفس والمال ولقيام الرجل فى الصف فى سبيل الله أعظم من قيام ستين سنة وما وجد النبى ﷺ عملا

يعدل الجهاد فى سبيل الله

و الشهادة – تلك المنزلة العظيمة – ما نالها صاحبها إلا لأنه اختار أن يضحى بنفسه فى سبيل الله وذلك من تمام التعظيم وأفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة، يضحك إليهم ربك، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه كما ورد بسند صحيح

وسيد الشهداء رجل قام إلى إمام جائر ينهاه عن منكره وظلمه ويصدع بكلمة الحق في وجهه حيث يغلب على ظنه أن الجائر الظالم لن يتقبل أمره بمعروف أو نهيه عن منكر مضحيا في تلك اللحظات بأمنه ونفسه حين يقتله هذا الجائر

و أفضل الصلاة بعد المكتوبة تلك التى فى جوف الليل لما فيها من تضحية بنوم هانىء وفراش وثير دافىء تعظيما لم يقوم القائم لأجله

و أفضل الصدقة جهد المقل لما فيها من تضحية ذلك المقل بمال هو أصلا قليل لكن قلته لم تمنعه عن إنفاقه لأن مقام الله فى نفسه أعظم

و أفضل الرقاب التى تعتق هى أغلاها وأنفسها عند أهلها

و هكذا تجد الأمر مطردا

كلما زادت التضحية دل ذلك على زيادة التعظيم فى القلب ومن ثم كان الفضل

و لقد قعد الشيطان بأطرق التضحية لأنها كما قلت أبلغ الدلائل على

حال المعظم لربه

فكما فى حديث سبرة بن فاكه المخزومى أن الشيطان قعدَ لابنِ آدمَ بأطرُقِه، فقعد له بطريقِ الإسلامِ فقال له: أتُسلمُ وتذرَ دينكَ ودينَ آبائكَ وآباءِ أبيكَ ؟ قال: فعصاهُ فأسلمَ، ثمَّ قعد له بطريقِ الهجرةِ فقال: أتهاجرُ وتذَرُ أرضكَ وسماءكَ وإنَّما مثلُ المهاجرِ كمثلِ الفرسِ في الطِّوَلِ، قال: فعصاهُ فهاجرَ، ثمَّ قعد له بطريقِ الجهادِ فقال: هو جهدُ النَّفسِ والمالِ فتقاتلُ فتنكحُ المرأةُ ويُقسمُ المالُ، قال: فعصاهُ فجاهدَ، قال رسولُ الله ﷺ: فمَنْ فعل ذلك منهم فماتَ كان حقًّا على الله أنْ يدخلَ الجنَّةَ أو رفصَتهُ دابَّتهُ كان حقًّا على الله أنْ يدخلَ الجنَّةَ. صحيح النسائى

و لقد كان حال المضحين دوما مثار استعجاب ودهشة لمن لم يدرك هذه القيمة

قيمة التعظيم

فما أقدم إبراهيم على تضحيته بولده إلا لأن مقام الله كان فى قلبه أعظم

و ما ضحى يوسف بحريته ومكانته وأعلن أن السجن أحب إليه إلا لأن خشية الله فى قلبه أكبر

و ما جاد صهيب الرومى بماله كله أثناء هجرته إلا لأنه حبه لله ورغبته فى رضاه كانت أظهر

و ما كان خبيب يبالى حين يقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعه إلا لأنه معظم لربه

و ما قال سعد لأمه حين حاولت فتنته عن دين ربه بقتل نفسها: لو أن لك مائة نفس خرجت كلها نفسا نفسا ما تركت دينى فكلى إن شئت أو لا تأكلى. إلا لأن حبه لله أكبر

و ما أقدم عبد الله بن عبد الله بن سلول على قتل أبيه حين سب نبيه ﷺ إلا لأن إرضاء الله كان فى نفسه أهم

و ما قام حنظلة غسيل الملائكة ملبيا نداء المنادى يا خيل الله اركبى ومضحيا بليلة عرسه ثم بعد قليل مضحيا بنفسه إلا لأنه أحب الله أكثر وعظمه أكثر

و كذلك كان حال كل شهيد صادق وكل منفق مخلص وكل مضح محتسب التعظيم

و لذلك اتصل الثناء على أولئك المضحين المعظمين فى الكتاب والسنة

فهم الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا

وهم الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

و هم أولئك الذين يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد

خلد الله ذكرهم وأثنى على أمجادهم وبطولاتهم

و هل ينسى أحد مؤمن آل فرعون وتضحيته؟!

و هل يغفل أحد عن مؤمن سورة ياسين وشهادته ؟!

و هل يطيب ذكر الشهداء دون الثناء على شهداء الأخدود وعلى رأسهم الغلام الذي دل الملك الكافر على طريقة قتله ليؤمن الناس بمن يعظم ويكبر

كل أولئك ضحوا وجادوا بأنفسهم فاستحقوا أن يعظم الله ذكرهم لما عظموه بفعالهم

و أكرم بالغامدية فى السنة النبوية حين أثنى عليها خير البرية قائلا: لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ولو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟

تأمل مرة أخرى قول حبيبك جادت بنفسها

أى ضحت

و ما ضحت إلا لأنها عظمت

عظمت حرمات الله ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾

وهل استعر الندم فى قلبها طوال أشهر الحمل والرضاع دون أن تخفت إلا لهذا التعظيم ؟!

و اليوم يوم التضحية وهو يوم التعظيم لذلك استحق أن يكون الأعظم

تذكر ذلك وأنت تضحى واعلم أنه لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى

فإن لم تكن مضحيا لضيق ذات يد ونقص قدرة فتذكر هذا المعنى وأنت تكبر

فاليوم يوم التكبير وما التكبير إلا تعظيم

لكن حذار أن نكون ممن يكبره كذبا

نعم للأسف هناك من لا يجاوز التكبير لسانه ولا يلامس التعظيم قلبه

و هل صدق من زعم أنه يكبر الله ثم آثر ألا يضحى ولو ببعض راحة لإجابة ندائه للصلاة ؟

هل صدق من زعم أنه يكبر الله وهو يأبى أن يضحى بمال حرام أو بنظر حرام ؟

هل صدقت من زعمت أنها تكبر الله وقد أبت أن تضحى ببعض المساحيق والزينة طمعا فى رضاه ؟

إن لتعظيم الله دلائل كما سبق وبينت وليست مجرد ادعاءات وعلى المعظم حقا أن يعى أن تعظيمه لربه لابد أن يكون مقترنا بتعظيمه لشرعه وأمره ونهيه ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾

ليس شرطا لتظهر تعظيمك أن تهاجر أو أن تقتل أو تضحى بولدك أو منصبك أو بمالك كله فلذلك إرهاصات لابد أن تظهر عليك أولا وأفضل الهجرة أن تهجر ما حرم الله وأفضل الجهاد جهاد النفس فى ذات الله كما صح رسول الله ﷺ

لابد أن يظهر عليك تعظيمك لله ولشرعه ولحرماته وشعائره من الآن

حتى إذا حدث التعارض بين محبوب أو مرجو وبين رضوان الله قدمت رضوان الله بلا تردد

فلنجعل اليوم العظيم الذى نحن مقبلون عليه إيذانا ببدء رحلة التعظيم التى نسأل الله أن تستغرق أعمارنا كلها

فلنعلنها اليوم لله

الله أعظم وأكبر

أعظم من كل محبوباتنا

و أكبر من كل مرجواتنا

لن يقف بيننا وبين إرضائه شىء

ولن نقدم بين يديه قولا أو اختيار

سنكبر الله صدقا ونعظمه حقا فى أعظم أيامه

يوم الأضحية

و التضحية

يوم الحج الأكبر

يوم النحر..

اليوم الأعظم

٣٨. كَثُرَ وطَابَ !!
(فهل من ملبٍ لنداء رب الأرباب)

يا بلال

التفت الرجل داكن البشرة إلى مصدر الصوت الذى يناديه فى ذلك اليوم المهيب

من ؟

إنه حبيبه وقرة عينه

هل مر اليوم بهذه السرعة ؟!

لقد كان ينظر إليه قبل قليل وهو فى وقفته المنكسرة بين يدى مولاه منذ الظهيرة يرفع يديه فى ضراعة المسكين ويبتهل ابتهال الخاضع الذليل طوال نهار ذلك اليوم العظيم فى ذلك الشهر الحرام فى هذا البلد الحرام

يوم عرفة

ها هى الشمس قد غربت أو كادت وهاهو يناديه

لبيك سيدى وقرة عينى وحبيبى

يا بلال أنصت لى الناس

انطلق مؤذن الحبيب لينادى الصحب والآل المنتشرين على صعيد

عرفات ما بين مبتهل وباك وضارع إلى ربه يناجى

هلموا إلى إمامكم وأسوتكم وهاديكم وقدوتكم فهو لا شك يطلبكم لأمر عظيم

اجتمع الخلق من كل حدب وصوب ووقفوا جميعا بين يدى رسولهم صلوات ربى وسلامه عليه ينتظرون وقلوبهم متشوقة لماذا جمعهم وأنصتهم قبل الإفاضة إلى المشعر الحرام

«معشر الناس أتاني جبرائيل عليه السلام آنفا فأقرأني من ربي السلام؛ وقال: إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المشعر وضمن عنهم التبعات»؛

الله أكبر الله أكبر

ياله من فضل وياله من بشارة

ربهم الذى باهى بهم الملائكة اليوم وقال لهم فى تلك العشية المباركة: عبادي جاؤني شعثا من كل فج عميق، يرجون جنتي، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل، أو كقطر المطر، أو كزبد البحر ؛ لغفرتها. أفيضوا عبادي مغفورا لكم، ولمن شفعتم له[1]

الآن يذكرهم مرة أخرى ويبعث جبريل فى ذلك اليوم العظيم ليخبر سيد ولد آدم عليه السلام بتلك البشارة الجليلة

سبحانك ربى سبحانك ما أعظم شأنك

ما ألطفك وأكرمك وأحلمك

فشا السرور فى الجمع المبارك وتهللت الأسارير بالقول الحسن وصاح من بين الجمع رجل...

إنه ليس أى رجل

إنه فاروق الأمة ووزير رسولها

إنه عمر رضى الله تعالى عنه

صاح مناديا يسأل ويطمئن على إخوان له لم يرهم

قال الفاروق مستفهما: يا رسول الله هذا لنا خاصة ؟

قال رسول الله ﷺ: بل لكم ولمن جاء من بعدكم إلى يوم القيامة

ما إن سمع عمر تلك الكلمات تخرج من الفم الشريف حتى صاح وقد تهلل الوجه وساد الانشراح: كثر خير الله وطاب كثر خير الله وطاب(٢)

نعم

صدقت يا عمر

كثر خير الله وطاب

و اشرأب الفضل وزاد

و تضاعف المن وفاض

كلمات يسيرة قالها الفاروق لخصت معنى من أهم المعانى التى ينبغى للناسك أن يعيها فى سيره إلى مولاه

كلمات تحمل أسرارا عظيمة وفضائل كريمة

كثر خير الله وطاب

كلما تأملت فى آيات المثوبة وأحاديث الفضائل والمكرمات تتأكد لديك تلك الحقيقة

تتأكد وتتيقن أكثر فأكثر أن ربك شكور كريم ذو فضل عظيم.

مع كل نفحة من نفحات ربنا لابد من تذكر هذا المعني

معنى شكر الله لعباده الطائعين وكثرة خيره وفيض ثوابه

إن شكر الله موضوع هائل لا يستطيع أحد الوفاء بحقه في أسطر قليلة

وإن المرء ليذهل حين يتأمل قدر الشكر فى مقابل العمل

الله يشكر علي العمل القليل بالجزاء الجزيل وهذا هو معني الشكر لغة وشرعا

في اللغة الشكر هو الزيادة يقال دابة شكور إذا أعطت النتاج الكثير الوفير مع العلف القليل وهو معنى لغوى يستقيم مع المعنى الشرعى الذى كثرت عليه الأدلة من الكتاب والسنة كقوله تعالى ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

فالشكور جل وعلا من معانيه السامية أنه هو الذى يغدق على عباده الطائعين بالجزاء الجزيل على العمل القليل ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

غالبا ما تجد معنى الشكر فى القرآن مصحوبا بالزيادة والمضاعفة ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾

إن أقل الأعمال وأهون القربات تورث ما لا يسعنا وصفه من الخيرات والحسنات

و تلك الأيام التى نحن مقبلون عليها أنموذج لذلك القدر العظيم

أيام يستطيع العامل فيها ويمكن للطائع من خلالها أن ينافس المجاهد فى سبيل الله

المجاهد !!

ذلك الذى ارتقى ذروة سنام الدين وعمل العمل الذى لم يجد النبى ﷺ شيئا يعدله به لما سئل عن ذلك؟؟

نعم

تستطيع أن تنافسه بل تتفوق عليه إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشىء

هذا فقط من لا تستطيع أن تتخطاه بعملك فى تلك الأيام كما ثبت عن خير الأنام

إنها حقا أيام مختلفة

أيام فارقة

قال عنها حبيبك ﷺ أنها أفضل أيام الدنيا

هكذا تفضيل بإطلاق يجعلك تفكر

هل معنى ذلك أنها أفضل من أيام رمضان ؟؟

فتجد فريقا كبيرا من أهل العلم يجيبك بثقة: نعم هى أفضل بنص ذلك الحديث محكم اللفظ

أيام أقسم الله جل وعلا بها فى كتابه فقال ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ والليالى العشر على قول جمهور المفسرين هى عشر ذى الحجة

بل فيها يوم يكفر صيامه عامين

يوم واحد بعامين !!

تخيل

إنه يوم عرفة الذى قدمت الكلام عنه

قال رسول الله ﷺ عندما سئل عن صيام يوم عرفة: «**يكفر السنة الماضية والسنة القابلة**» رواه مسلم في الصحيح

ما أعظم هذا الكرم وما أطيب نفحات الله

والله إن المرء لا يجد من الكلمات ما يعبر به عن هذا الفضل الكبير إلا قول الفاروق مرددا معه بكل جوارحه

كثر خير الله وطاب ... كثر خير الله وطاب

أليس هذا الحديث وما كان على شاكلته مدعاة للتفكر والتأمل والتساؤل

ما الذى فعله الصائم ليستحق كل هذا الفضل؟

تكفير سيئات عامين كاملين ببضع سويعات من الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة؟

هل بذل هذا الممسك مجهودا خارقا للعادة أو ضحى بنفسه أو ماله لينال هذا الفضل العظيم ؟

الجواب لا بل عمل عملا سهلا يسيرا أطلق عليه السلف الغنيمة الباردة

إن مجرد تذكر هذه الذنوب التي أقترفناها في عام كامل مضى أمر مرهق بل قد يكون مستحيلا علي بعض الناس عد ذنوبهم فما بالك بأنك لن تعد وحتي لن تتذكر

بهذه السويعات القليلة تنال مغفرة كل تلك الذنوب (عدا الكبائر التي تحتاج إلي توبة منفصلة).

لا شك أنه ليس من سبب لذلك والذى لا إله غيره إلا قوله سبحانه ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾

أنا إن تبت مناني وإن أذنبت رجاني

وإن أدبرت ناداني وإن أقبلت أدناني

وإن أحسنت جازاني وإن قصرت عافاني

إن تذكر هذا المعني لابد أن يملأ القلب بالحماس والرغبة في المتاجرة

مع الشكور جل وعلا

الشكور الذي يربحك أعلي الأرباح علي أقل الأعمال وليست فقط هذه الغنيمة الباردة هى ما يُنال به هذا الأجر الهائل بل مثلها كثير

فصيام يوم عرفة يكفر عامين عاما قبله وأخر بعده.

وصيام يوم عاشوراء يكفر العام الذى قبله.

والصلاة إلي الصلاة كفارة لما بينها.

والجمعة إلي الجمعة ورمضان إلي رمضان والعمرة إلي العمرة كذلك يكفرون.

وكم عمل بسيط وذكر يسير يكفر أعتي الذنوب

فها هي مئة تسبيحة بحمد الله تكفر ذنوبك ولو كانت كثل زبد البحر

وها هو استغفارك للمؤمنين والمؤمنات تنال به أكثر من «مليار» حسنة بكل مؤمن حسنه

وذكرك في السوق موطن الغفلات ومرتع الشهوات تنال به «مليون» حسنة ويحط عنك «مليون» خطيئة وترفع به مليون درجة ويبني لك بيتا في الجنة نعم والله مليون كما صرح بذلك النبى بلفظ ألف ألف.

وصلاتك ووضوءك وعيادتك للمريض وغير ذلك من الأعمال اليسيرة التي لها من الفضائل ما لا نستطيع حصره فى هذه السطور ومكانها كتب الفضائل وإن شئت فانهل ولا تبخل على نفسك بالعشرات بل المئات

من أسباب المغفرة التى لا تقل إن لم تزد عن فضائل تلك الأيام الحاسمة التى نحن مقبلون عليها.

إن كل ما ذكرته من النعم والفضائل والنفحات ليملأ القلب بالفرح بالله والاعتزاز بهذا الدين ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

و كلما مرت الساعات ازداد الاشتياق وتضاعف اللهفة لتلك اللحظات الغالية التى لا أكون مبالغا لو قلت أنها لحظات مصيرية فى حياة المسلم ومستقبله

أما أشد ما يحزن المرء أن يجد كثيرا من الناس لا يقدرون هذه الأيام حق قدرها ولا يتعاملون معها من منطلق الفرصة الذهبية والصفقة الرابحة وتجد أن علاقتهم بالعمل الصالح فيها لا تدانى علاقتهم به فى رمضان رغم أنها أيام كما سبق وأوضحت لا تقل عنه فضلا إن لم تزد

إن من الأدب مع الله جل وعلا أن يتعرض العبد لنفحاته ويقبل عطياته وهباته ومن تلك النفحات هذه الأيام التى نحن مقبلون عليها

المؤمن الذى يوقن باسم الله الشكور ويرجو أن يتعبد لمولاه بمقتضاه ويعلم علم يقين أن خيره قد كثر وطاب لابد أن يحاول جاهدا أن ينهل من هذا الخير ويدرك هذا الفضل

هذه أيام عمل إن حرم العبد فيها أعظم أعمالها وهو حج بيت الله فليس

أقل من أن ينافس الحجيج والعمَّار فى نفسياتهم المتوقدة وإقبالهم الجميل الذى يرفعون فيه شعار «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»

ألا فليلبى الماكث بقلبه وليرفع شعار الكليم عليه السلام وإن كان فى قعر بيته قائلا ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

فليكن العمل الصالح بكل أنواعه سبيلك ومعقد عزمك فى تلك الأيام تتنقل بين واحات الصيام والقيام والقرآن وتنهل من عيون التحميد والتكبير والتهليل وتتنسم عبير الصدقات وصنائع المعروف ولا تحرم نفسك من باب من أبواب الخير تلقى فيه بسهمك إن استطعت إلى ذلك سبيلا

و لتكن دوما كلمات الفاروق نصب عينيك فى تلك الأيام بلغنا الله إياها

كثر خير الله وطاب

فيا بغاة الخير هلموا إلي عظيم الأجر وجزيل الثواب فقد كثر خير الله وطاب

---

(١) (حسنه الألبانى فى صحيح الترغيب من حديث عبد الله بن عمر).

(٢) (أصل الحديث رواه أبو يعلى وبن عبد البر وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب).

٣٩. لنكون حقا ممن أدركوا رمضان

صديقان حميمان هما

بل أكثر من ذلك... ربما

إنهما أخوان لم تلدهما أم واحدة

عاشا حياتهما مترابطين ثم جمعت بينهما رابطة جديدة أوثق من تلك التي كانت بينهما من قبل

رابطة الأخوة الإيمانية

لقد أسلما سويا وخالطت بشاشة الإيمان قلبيهما فى اليوم نفسه

جاهدا معاً وشهدا المشاهد بجوار قائدهما ومعلمهما رسول الله ﷺ

ثم حانت لحظة الفراق...

سقط الأول مضرجا في دمائه الزكية بميدان من ميادين الشرف والبطولة ونال ذلك الفضل الذي طالما طلبه في مظانه وسعى ليصيبه طوال حياته حتى أُكرم بتلك الشهادة والله حسيبه

مكث صاحبه بعده عاما مضى فيه على عهده فما قصر -قدر وسعه- عن طاعة وما كسل عن قربى وما انقطع عن مكرمة طالما سبقه إليها أخوه الشهيد بإذن الله

حتى حانت لحظة اللحاق..

لكنها كانت هذه المرة في مكان أقل صخبا وأكثر هدوءاً

مات الصاحب على فراشه بين أهله وأحبابه ليلحق بمن سبق وليلاقي ما قدم لحياته

لا شك أن ميتة الأول كانت أعظم شرفا وأعلى قدرا عند الناس بل بعموم وظاهر النصوص الشرعية هي الأعلى قدرا عند الله

وهل من ميتة أعظم من ميتة شهيد قاتل في سبيل الله حتى قُتل مرتقيا ذروة سنام هذا الدين أو رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله

الأصل أن الإجابة: لا

لا نعلم ميتة أشرف ولا أعظم من تلك الميتة أو ما يوازيها من ميتات سادة الشهداء الصادعين بالحق عند جائر السلاطين في كل زمان ومكان

لكن الأمر ها هنا كان مختلفا والمشهد كان يحوي معيارا مغايرا

لقد أدرك الثاني رمضان

لقد زكى وصلى وصام

ولقد سبق الأول!!

نعم الذي مات على فراشه سبق أخاه الذي مات تحت ظل السيوف والرماح

ليس الاستثناء هنا رأيا أو اجتهادا بل هو بشهادة من لا ينطق عن الهوى

لقد شهد له الحبيب ﷺ أنه رغم موته على فراشه إلا أنه سبق صاحبه الشهيد

وليس سبقا عاديا

بل ما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض بلفظ النبي ﷺ

لقد رأى سيدنا طلحة رضي الله عنه مناما فيه أن الذي مات على فراشه سبق أخاه المجاهد إلى روضات الجنان

ولقد تعجب طلحة وتعجب الناس لما في ذلك من مغايرة للأصل الذي يعرفونه فهرعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويستفسرون منه عن حقيقة تلك الرؤيا

فجاء التفسير من البشير النذير: من أي ذلك تعجبون؟! أليس قد مكث هذا بعده سنة؟

- بلى فعل يا رسول الله..
- وأدرك رمضان فصام وصلى كذا وكذا من سجدة في السنة؟
- بلى
- فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض

هكذا بين رسول الله ﷺ هذا المعيار المختلف الذي غاب عن البعض

معيار يجعل الأمر ممكنا والسبق متاحا لمن تقبل الله منه يسير الأعمال ولمن أدرك رمضان

إن هذا الحديث وغيره من أحاديث رمضان نقاط فاصلة ينبغي أن تغير مفهوم الناس لرمضان والاجتهاد والطاعة فيه

ينبغي أن تفتح بابا عظيما للأمل في السبق والتغيير

تغيير كل شيء في حياتك الدنيا وفي آخرتك بإذن الله

عام واحد ورمضان واحد غير حياة إنسان كان أقل اجتهادا من أخيه كما بنص الحديث المذكور إلا أنه شكل انطلاقة عظيمة في حياته أهلته لأن يسابق الشهيد

بل ويسبقه!!

الأمر طبعا ليس تقليلا من شأن الشهيد ولا الشهادة فالأصل أن الذي مات على فراشه كان كسائر الصحابة يطلبها في مظانها ويتواجد في ميادينها

لكنه كما قلت باب أمل لمن لم يدرك ذلك المنزلة ولم يُصطفى ليكون من أهل الشهادة

والمسألة بالطبع ليست مطلقة مطردة فكم من أناس أدركوا رمضان ليس مرة لكن عشرات المرات في أعمارهم ولم يذكر لهم مثل ذلك الفضل

فالعبرة للمسابقة ليست مجرد الإدراك الزماني ولكن الإدراك الحقيقي الذي يغير المرء للأفضل

إن رمضان عبارة عن انطلاقة تغييرية وفرصة ذهبية لكل من ابتغى خيري الدنيا والآخرة لذا ينَادَى هذا المريد للخير في أول أيام رمضان محفزا

ويقال له: يا باغي الخير أقبل

أقبل فهذه فرصتك وتيك غنيمتك والسوق قد نصبت والعدو قد صُفد والمضمار قد هُيىء والسباق قد انطلق

أقبل فكل الظروف قد باتت مواتية لتتغير وتغير

الناس من حولك في طاعة والشهوات قد تقلصت بصيام نهار والطاعات قد يسرت بقيام ليل ولم يتبق إلا أن تُقبِل

لديك الفرصة أن تسابق الشهيد وأن تدرك ما فاتك من جديد وأن تبيض صحائفك وتطهرها من ذنوب قد تكاثرت عليك وطاعات فيها قد قصرت

ولقد جرت العادة وترسخ العرف أن من واتته فرصة فاستعلى عليها وأعرض عنها ناله بعدها من ذل الندم الشىء الكثير

لذلك نجد هذا المعنى الدقيق الذي ورد فيه الحديث من مَرْغَمَة أنف ذلك الذي أدرك رمضان ولم يُغفر له

والأصل أن المغفرة أمر رباني هي بيد الغفور جل وعلا فكيف نجد الخبر بأن من لم يدركها رغِيم الأنف؟!

الجواب أنه أعرض وأبى فاستحق أنفه ذلك التمرغ في تراب الندم

أعرض عن الفرصة وأبى أن يأخذ نصيبه من عرض المغفرة المقام طوال شهر رمضان بقيام وصيام وقرآن بشرط الاحتساب والإيمان

وجد من حوله الناس يطيعون والخلق يقبلون وعلى الطاعات يداومون ولكنه أعرض حتى انسلخ عنه الشهر ولم ينل من ذلك الفضل الواسع

أو ليست نكسة تستحق ندما حقيقيا

بلى هي كذلك وربي

حين ينادَى فيعرض ويُدعى فيتولى ويُكرم فيجحد فذلك هو الخذلان عافانا الله

أما الحصيف فلا يذر مثل تلك الفرصة تمر

فمثله كمثل التاجر الأريب لا تفوته صفقة رابحة ولا يتورط في بيعة خاسرة والمؤمن تاجر مع ربه يرجو تجارة لن تبور

وأعظم صفقة رابحة في رمضان كما أسلفت هي صفقة التغيير

فرمضان في ذاته تغيير والمرء في رمضان يختلف عنه في سائر الشهور وذلك ينطبق على الجميع

حتى رسول الله ﷺ تجده في رمضان أجود ما يكون.. أجود من الريح المرسلة حين يأتيه جبريل فيدارسه القرآن وتجده في العشر الأواخر يشد مئزره ويوقظ أهله ويجتهد أيما اجتهاد وهو الذي كان في سائر حياته صاحب أعظم الجد والاجتهاد

لكنه مع ذلك يحتفي برمضان بشكل مختلف في رسالة ضمنية إلى الأمة أن تنبهوا فالسوق منصوبة وسرعان ما ترحل وما هي إلا أيام معدودات

ولا يُعد إلا الثمين من الأشياء

والتغيير هو المقصد الأهم من رمضان وعلى ذلك اتفق العقلاء وشهد الشاهدون ودل على ذلك الدليل من الشرع والواقع

وهل بعد قول الله من قول وهو الذي أنزل في كتابه مبينا المقصد من الصيام محكما ظاهرا في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

فلهذا شرع الله الصيام

لكي تخرج منه وقد تحليت بالتقوى وتزينت بالاستقامة وترسخت في نفسك معاني الإحسان والمراقبة

وكم من شواهد واقعية تظهر تلك الحقيقة واضحة جلية وذلك حين تنظر لنماذج من خرجوا من رمضان بحال تختلف تماما عن الحال التي دخلوه وهم عليها

كم من شاب استقام في رمضان وأكمل حياته على تلك الاستقامة وكم من عاصٍ كان رمضان بداية لتوبته ومنطلقا لأوبته وكم من عابد وعابدة وزاهد وزاهدة تقلبوا في نعيم القرب من الله وسلكوا سبيل العبودية والتنسك من بوابة رمضان

النماذج تلك مشهودة وأكثر من أن تحصى ولا يتسع المقام لذكرها

يكفيك أن تجول جولة بذهنك مسترجعا حال من تحسبهم على خير وتقوى وصلاح ممن تعرف وتتذكر كيف بدأوا ولا شك أنك ستجد بينهم

من كانت بداية تغييره إلى الأفضل في هذا الشهر الكريم

ذلك لأن رمضان جرعة تغييرية مكثفة تتضافر فيها عدة عوامل أهمها في نظري الصيام والقرآن

فالصيام يقلل الشهوات إلى أدنى درجاتها وقد نصح النبي من لم يستطع الباءة فلم يتمكن من الزواج بالصوم فهو جُنة وترس في وجه الشهوات

والقرآن كتاب تغييري في المقام الأول أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وهو كتاب لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا ولشهدته متصدعا وقد قال الله عنه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ وتقدير الكلام لكان هذا القرآن هو الذي يحدث تلك التغيرات الكونية العظيمة من تحريك جبال وتقطيع أرض وتكليم موتى فإن كانت تلك قدرته التغييرية على تلك الكائنات فما بالك بقدرته التغييرية على قلبك

لذلك تجد الربط الواضح بين مشهد الجود المضاعف لدى النبي ﷺ وبين مدارسته للقرآن مع جبريل عليه السلام

واجتماع الصيام والقرآن على القلب في رمضان ينشىء حالة عميقة أكيدة من التأثير التغييري يندر أن تجد متعرضا صادقا لها إلا ويتغير بها حيث تعرض الآيات على القلب وهو في حالة من تراجع لمنسوب الشهوات تؤهله للتأثر والتفاعل مع كلام الله

وتلك هى الفرصة الكبرى للتغيير ولاكتساب التقوى

وهو فرصة كذلك للتغيير السلوكي وتعويد النفس على صالح الأخلاق التي بعث النبي ﷺ ليتممها

فهو مدرسة للصبر والجلد وتحمل المشاق وهو محضن أخلاقي يكسب المسلم الواعي الذي يدرك خطورته قدرة على حسن الرد ومقابلة الإساءة بالحسنى وهو فرصة ليذر الإنسان ما تساهل فيه من قبل من قول زور أو عمل به

وأحاديث الأخلاق في رمضان بالذات تحمل طابعا ترهيبيا خاصا يختلف عما جرت به عادة بقية ما ورد من أحاديث في شأن رمضان

ويتبين المرء خطورة المران الأخلاقي في رمضان ومدى التلازم بينه وبين قبول الطاعة في هذا الشهر ما بين تحذير من الرفث والفسوق حال الصوم حتى وإن شاتمك أحد أو أساء إليك فتقول إني امرؤ صائم إلى بيان أن من لم يدع قول الزور أو العمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعام وشرابه وختاما بإشارة رهيبة إلى صائم وقائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش والسهر والنصب

أيضا تجد في رمضان مرانا عمليا على التأدب مع الله وحسن معاملته ويتجلى ذلك في مشهد الخلوة النهارية للصائم القادر على أن يفطر بكل بساطة دون أن يلحظه أحد ومع ذلك لا يفعل بل تجده يبالغ في التخلص من

بقايا ماء الوضوء في فمه خشية أن يصل إلى حلقه ولو بدون قصد

إن لم يكن ذلك من مقام المراقبة والإحسان وعبادة الله كأنه يراه فما يكون إذن؟!

المشكلة الكبرى أن كثيرا من الناس يصلون لتلك المراتب العلا والدرجات الإيمانية الرفيعة ويغفلون عن اقتناصها وجعلها نقطة انطلاق للتغيير الشامل في كافة مناحى الحياة إيمانية كانت أو تعبدية أو سلوكية

فتجد الانشغال الجاف بأمور تأخذ للأسف في كثير من الأحيان الشكل الجامد للتعبد دون تحقيق المقصد الأسمى وهو تمام التغيير فضلا عمن ينشغل بالملهيات وبواعث الغفلات

فبدلا من أن يتحول رمضان إلى واحة للتدبر والمدارسة وذلك هو الأقرب لهدي النبي ﷺ تجد الاهتمام منصبا فقط على الإكثار من الختمات دون كبير اهتمام بفهم أو تأمل يورث تغيرا إلى الأفضل من خلال القرآن

وبدلا من اكتساب المقامات الإيمانية من الصوم وعلى رأسها الإحسان والمراقبة تجد الانشغال بالتسلية أو النوم لتنقضي ساعاته دون تأمل في مقاصده وروحانياته

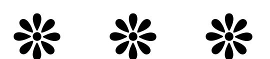
وبدلا من التخلق بالحلم والأناة والصبر على الأذى ومقابلة الإساءة بالحسنى نجد اتخاذ الصوم ذريعة للعصبية والجهل على الناس وضيق الأفق أثناء معاملاتهم

وبدلا من إحياء ليل رمضان بالقيام والذكر والاستغفار تجد الانشغال باللهو ومتابعة الفجار الذين يبذلون كل ما في وسعهم لسرقة ساعات الليل الغالية في رمضان

وبدلا من أن يكون رمضان فرصة للزهد وللتخفف من أحمال الدنيا وزخرف شهواتها تجد المبالغة في الترف والسرف الذي يزيد المرء تثاقلا وتباطؤً عن الطاعات والقربات التي تحتاج إلى مثل هذا التخفف المأسوف عليه

وهكذا ينقلب الحال في رمضان ويفقد قيمته الحقيقية وتزول قدرته التغييرية بعد إفراغه من مواطن تأثيره ويصير المرء دون أن يشعر عرضة لدعاء سيد الملائكة وتأمين إمام المرسلين: رغم أنف امرئ أدرك رمضان ولم يغفر له

لذلك ينبغي على المسلم المسدد أن تكون له استراتيجية وخطة دقيقة في رمضان يمعن من خلالها في الانتفاع بمواطن التأثير والتغيير كما أسلفنا كي لا يكون فقط ممن أدركوا رمضان إدراك زمان بل يسعى جاهدا ليكون ممن أدرك رمضان كفضل وإحسان وينخلع منه بتغيير وسبق وغفران.



٤٠. لن تسرقوا منا رمضان

ومـن صـام أو صـلى يعلـم حالـه ففـي النـار يلقـوه كـل حالـة
ومـن لم يجـئ منـا لموضـع كفـرهم يعاقبـه اللبـاط شر العقوبـة
ويلطـم خديـه ويأخـذ مالـه ويجعلـه في السـجن في سـوء حالـة
وفي رمـضان يفـسدون صـيامنا بأكـل وشرب مـرة بعـد مـرة

كانت هذه بعض أبيات من رسالة أرسلها بعض الموريسكيين يستنجدون فيها بالسلطان العثماني بايزيد الثاني من هول ما يجدون في الأندلس بعد سقوطها في يد القشتاليين

والموريسكيون لمن لا يعرفهم هم أولئك الأندلسيون الذين بقوا في الأندلس بعد سقوط دولة الإسلام سنة ١٤٩٢م.

ومعنى كلمة الموريسكيين هو: العرب المتنصّرين

أو بمعنى أدق الذين أجبرتهم إسبانيا على التنصّر بالإكراه بعد سقوط الأندلس ومن رفض التنصّر كان يقتل هو وأهله أو يذوق الويلات والفظائع حتى يتمنى الموت في أقبية الكنائس على يد زبانية محاكم التفتيش الوحشية

لذا فقد اضطر هؤلاء الموريسكيون لإعلان النصرانية تظاهرا فقط وبقوا زهاء قرنين من الزمان مسلمين يكتمون إسلامهم إلى أن اندثر الإسلام في أجيالهم المتأخرة بعد ذلك بفعل القمع الرهيب الذي كان يخفت من صوت الحق في تلك الربوع رويدا رويدا

ورغم أن إسبانيا كانت تحظر عليهم التفاهم باللغة العربية وإحياء أى تقاليد إسلامية أو شعائر تعبدية إلا أنهم كانوا يتمتعون بقدرة عجيبة على الاحتفاظ بلغتهم فيما بينهم وداخل بيوتهم وبين أولادهم.. وكانوا يتحدثون القشتالية لغة اسبانيا فى تلك الأزمان مع غيرهم من الإسبان النصارى حتى لا ينكشف أمرهم.. وكان لكل شخص منهم اسمان اسم عربى يتخاطبون به بينهم ولا يعرفه الإسبان واسم قشتالى اسبانى يعرفه به الاسبان..

ولكن الويل كل الويل لمن يثبت عليه ارتكاب المحظور والتكلم باللغة العربية أو التلبس بالقيام بأى شعيرة من الشعائر الإسلامية فقد كانت محاكم التفتيش حينئذ تذيقه الويلات من سلخ وإحراق للناس أحياءً وقطع أطرافهم أو اغتصاب نسائهم أمام أعينهم.. فى مشاهد غاية فى الفظاعة لا فرق فيها بين كبير أو صغير أو عجوز أو شيخ..

العجيب أن هؤلاء الموريكسيين ورغم حفاظهم على سرية معتقدهم الذي لم يكن يظهر إلا أثناء ثوراتهم المتعددة أو من خلال رسائلهم للسلاطين المسلمين كتلك التي صدرت بها المقال أو في تحقيقات محاكم

التفتيش مع من كشف منهم

إلا أنهم كانوا يأتون إلى رمضان وتتعاظم في نفوسهم العزة الإسلامية وتعلو هممهم لدرجة تجعلهم لا يستطيعون كتمان تعبدهم ولا إخفاء تعظيم شعائر دينهم في هذا الشهر تحديدا

ولقد حاول المؤرخون الإسبان الذين عاصروا الموركسيين بإسبانيا رسم صورة لحياتهم الدينية السرية وقد خرج جلهم بخلاصة مفادها: أن صيام شهر رمضان واحترامه وتعظيم شعائره هو أكثر ما تشبّث به الموركسيون رغم مرور العقود على تنصيرهم.

يقول المؤرخ الإسباني بورونات إي باراتشينا (Boronat y Parrchina) محاولا رسم صورة عن حياة الموركسيين الدينية كما كانوا يؤدونها خفية عن أعين الوشاة النصارى[١] وقد أورد عدة مظاهر أساسية في حياة المسلمين بينها الصيام حيث ذكر عن شهر رمضان: «ومدته ثلاثون يوما لا يأكل المسلم خلال اليوم إلا في الليل عند بزوغ النجم وفي كل ليلة يتسحر المسلم فيأكل بقية ما خلفه في أكل الليل يأكل قبل الفجر ويغسل فمه ويؤدي الصلاة ويتطهر المسلم قبل بدئ رمضان. يبدأ الصوم برؤية الهلال وينتهي برؤية الهلال. بعد ذلك ينتظر أحد عشر شهرا والشهر الثاني عشر يكون هو رمضان بحيث أن رمضان يبدأ قبل رمضان السابق له بنحو عشرة أيام إذ هكذا يكون حساب الأهلة. بعد أن ينتهي شهر رمضان – ومدته

ثلاثون يوما – يحتفل المسلمون بعيد الفطر».

و استخلصت الباحثة الإسبانية غارسيا مرثيدس أرينا من دراسة لمحاضر محاكم التفتيش الإسبانية أن: «العبادات الأكثر رسوخا في حياة المورسكيين والتي يتردد ذكرها في كل محاضر التفتيش تقريبا هي صيام رمضان والطهارة والصلاة».

تقول الباحثة: «وبدون أدنى شكٍّ صيام رمضان هو العبادة الدينية الأكثر تأصلا في حياة المسيحي الجديد وفي الغالب هي أكثر عبادة يحافظ عليها الجميع. ويمكن القول بأنه أخر مظهر إسلامي من حيث التلاشي فصيام رمضان كما تصفه المحاضر يرتكز أساسا على الإمتناع عن الطعام والشراب والمحافظة على ذلك من الفجر إلى الليل عندما تطلع النجوم خلال شهر رمضان بأكمله. على وجه التحديد طابع الرفض والإمتناع في الصيام مثل ذلك طابعه الجماعي يجعل منه العبادة الإسلامية الأكثر تأصلا وبالتالي الأكثر تميزا»

أما الباحث الإسباني الشهير خوليو كارو باروخا فقد ذكر نقلا عن كتاب «سرفنتس والمورسكيون»: «أنه في بداية القرن السابع عشر كان أهل مرسية وجيان ومن بقي في غرناطة يصومون رمضان». أي بعد أكثر من مائة عام على سقوط غرناطة حافظ الأندلسيون على صيام رمضان. وهذا إن كان يدلّ على شيء فإنما يدل على عظم مكانة هذا الشهر عندهم رغم بطش

النصارى بهم واستضعافهم إياهم

وقد شكلت مراقبة هلال رمضان للأندلسيين مهمة محفوفة بالمخاطر نظرا لانتشار أعين الوشاة الذين يترصدون الحركة الكبيرة والصغيرة التي قد توحي بأن فاعلها مسلم. لكن شدة شوقهم لصيام رمضان كانت أكبر من خوفهم من النصارى فورد في العديد من الروايات التاريخية أنهم كانوا يصعدون إلى المرتفعات لرؤية الهلال حرصا على صيام رمضان في وقته الشرعي.

وقد عاش الأندلسيون في حالة خوف وحذر من الوشاة وأخفوا عقيدتهم والتمسوا الخلوات والأماكن المنعزلة لأداء فرائضهم ومنها الصيام وكان النصارى إذا حل رمضان يمتحنوهم لمعرفة ما إذا كانوا ممسكين ورغم اعتذار الأندلسيين بأعذار مختلفة لتبرير عدم أكلهم فإنهم كانوا يتابعون ويراقبون من طرف محاكم التفتيش. وهذا ما جعل عدد المورسكيين المدانين في شهر رمضان أكثر بمراحل من الشهور الأخرى.

و لتفادي المراقبة النصرانية عمل الموريسكيون الأندلسيون على احتراف مهن تُبعدهم عن أعين الوشاة حتى يتمكنوا من أداء شعائرهم في اطمئنان نسبي. وهكذا فقد اشتغلوا بمهنة نقل البضائع حيث كانوا يقضون رمضان في قرى غير قراهم أو في طريقهم إلى مدينة أخرى. وقد شكل لهم هذا فرصة لدعوة الأندلسيين إلى الإسلام وتعليمهم أمور دينهم

تخيل!!

لم يكتفوا فقط في ذلك الشهر بالتعبد وإنما علت هممهم لدرجة أن حرصوا على الدعوة إلى الله والمساعدة في هداية الخلق إليه وفي هذه الظروف العصيبة والاستضعاف الرهيب

و لولا خشية الإطالة لأوردت من محاضر محاكم التفتيش بعض النماذج لقضايا حوكم أصحابها وعذبوا لأنهم حرصوا على إظهار الشعيرة في رمضان والدعوة إليها ودلالة غيرهم لسبيلها.

تذكرت تلك الأحداث التاريخية ووثائقها وأنا أتابع وأشارك قدر وسعي في تلك الحملة الرائعة التي أطلقها بعض الشباب وسموها باسم معبر للغاية

حملة لن تسرقوا منا رمضان

تذكرت حال الموريسكيين وأنا أتأمل هذا العنوان المعبر ثم سألت نفسي

ومن يسرق منا رمضان؟!

هل هم القشتاليون السفاحون؟!

هل هم مجموعة الساديين المجرمين الذين كانت متعتهم في الحياة أن يمزقوا أجساد المؤمنين ويقطعوا أوصال الصائمين القائمين ؟!

هل قطاع الطرق إلى الله هذه الأيام يحملون سيوفا ورماحا يضعونها على رقاب المسلمين كما كان الحال مع المورسكيين الذين ذكرت طرفا من سيرتهم؟!

الجواب: لا

إن قطاع الطرق وسارقي رمضان هذه الأيام لا يحملون سيفا ولا يستعملون آلة تعذيب في محكمة تفتيش

ومع ذلك تجد كثيرا من المسلمين يسلمونهم رمضان بدون تهديد أو وعيد!!

تجد كثيرا من المسلمين رغم سعة العيش وسهولة العبادة ويسر إظهار الشعيرة أقل تمسكا من أولئك المستضعفين المساكين الذين قدروا رمضان بشكل أفضل بكثير من العديد من شباب المسلمين اليوم ولم يترخصوا رغم إكراههم وجواز ذلك لهم

لكن المشكلة هذه الأيام مزدوجة لا ينبغي أن يتحمل مسؤوليتها سارقو رمضان وحدهم رغم عظم جرمهم ورغم عدم تمكن العقل من إيجاد أي عذر لهم يجعلهم يكثفون هجمتهم في هذا الشهر بالذات

نعم المشكلة مزدوجة يتحمل جزءا كبيرا منها من سمح لهم بسرقته ولم يؤمِّن على رأس ماله

يتحمل مسؤوليتها من لم يتفكر لحظة ويسأل نفسه سؤالا حاسما

لماذا يفعل سارقو رمضان ذلك ؟!

لماذا يعلمنون رمضان؟!

و«علمنة رمضان» هي الاصطلاح الذي أراه مناسبا لوصف تلك

المهزلة بل الجريمة التي تتفاقم كل عام

لماذا لم نتفكر بجدية في سر هذا السعار الفني والإعلامي في رمضان ؟!

لماذا يغرسون تلك المفاهيم الخفية التي تغير من طبيعة رمضان في الوجدان المسلم؟!

لماذا يتحول رمضان إلى شهر مسلسلات وبرامج مسابقات وتفاهات وفوازير وسهرات؟!

ما علاقة رمضان بالدورات الرياضية أو بالخيام الترفيهية ؟!

من غرس تلك المفاهيم في عقول المسلمين وربطها برمضان ؟!!

و هل من فعلوا ذلك يريدون فقط تسلية صيامك ؟!

أن أنهم في الحقيقة يريدون تضييع صيامك وقيامك؟!

يريدون تضييع القيمة الأكبر لرمضان وهي التغيير للأفضل للأتقى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

هذه هي الغاية وذلك هو المقصد الرباني والذي في مقابله المراد الشيطان الشهواني

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾

تأمل وتدبر

هدفهم ليس فقط أن تميل أو تزل

وغايتهم ليست مجرد الوقوع في أمر يحتمل خلافا

هدفهم الذي أخبرك به الله - ومن أصدق من الله حديثا - هو أن تميل ﴿مَيۡلًا عَظِيمًا﴾

دعهم ينكرون كما يشاءون ودعهم يتجملون ويكذبون ويدلسون ويزعمون أنهم وسطيون مبدعون وعلى مصلحتك ومتعتك حريصون

لكن مهما قالوا ومهما ادعوا فإن القول الفصل قول ربك ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾

هذا هو الاقتران وتلك هي المزاوجة التي لا تنفصل عند أولئك المفسدين

اتباع شهوات ورغبة في إمالة الخلق

ليس مجرد ميل

بل ﴿مَيۡلًا عَظِيمًا﴾

البعض ينكر بكل حماس وجود طائفة تريد للأمة أن تتبع الشهوات وأن تميل هذا الميل العظيم وأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويسفهون بكل قسوة ممن يحذر الخلق من تلك الطائفة وكأنه يدعي شيئا أسطوريا مستحيلا كالغول والعنقاء والخل الوفي

بينما لو تدبروا كتاب ربهم لوجدوا هذا البيان القطعي في الآية السابقة

عن تلك الطائفة المضلة التي تريد للمؤمنين الميل معها وتسعى بقوة لتمرغهم في أوحال الفساد إلى جوارها

و هؤلاء هم سارقو رمضان

و تلك هي حقيقتهم جلية ظاهرة

فلماذا نتغافل عنها

لماذا نسمح لهم أو لغيرهم بسرقته

لماذا لا ندخل رمضان بنفسية المورسكيين ونواجه سيوف شهواتهم ورماح مغرياتهم وخناجر فتنهم بنفسية مجاهدة صلبة

لا نحتاج أن نفعل كما فعل المورسكيين فنخرج إلى البراري والأصقاع فارين بديننا من محاكم التفتيش أو أن نستخفي بشعائنا خوفا من عذاب جلاد وبطش متجبر ولكن مهمتنا بلا شك أهون

فقط نحتاج إلى إرادة قوية وعزيمة ونية وتعظيم وهوية

دعونا ندلف إلى رمضان بتلك العزيمة والنية وبهذا التعظيم لشعائر الله وإظهار الهوية ولنرددها معا في كل مكان

في بيوتنا وأعمالنا ومساجدنا وبين أهلنا وذوينا وأصحابنا وعلى جدران شوارعنا وعلى جوارحنا وفي عقولنا وبقلوبنا وعلى ألسنتنا دعونا نصدع بها قوية ونحطم بها جدر باطلهم وأسوار شهواتهم صائحين

لن تسرقوا منا رمضان

٤١. وقفات عاشورية

ولايتنا لمن؟

من فضل الله علي عباده المؤمنين أنه أكثر نفحاته إليهم وأجزل عليهم مواسم الخير فما يكاد ينقضي موسم طاعة حتي يبدأ غيره ويظل المسلم يتنقل من خير إلي خير فكلما قارب علي الفتور أيقظته نفحة وإذا ران على قلبه من غبار النسيان وطول الأمد لفتته فرصة

فأفاق وتذكر كما قال النبي عنه «إن المؤمن خلق مفتنا توابا نسيا إذا ذكر تذكر».

وها نحن علي مشارف نفحة جديدة وفرصة جزيلة وموسم خير فائض وهو شهر الله المحرم ويوم الله عاشوراء، وكثير منا لا تزيد علاقته بشهر الله المحرم إلا المعرفة الباهتة للحديث المشهور أن أفضل الصيام هو صيام هذا الشهر...، وجل ما يعرفه عن عاشوراء أن صيامه يكفر عاما قبله.

لكن الحقيقة أن المتأمل في الأحاديث التي وردت وصحت في شأن المحرم وعاشوراء يجد أنه بصدد أيام جليلة وفوائد نبيلة تستوجب منه وقفة بل وقفات مع معانيها وفوائدها الظاهرة والمستنبطة يتذكرها ويُذكِّر بها من باب قول الله ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ ...﴾.

وقبل أن نبدأ وقفاتنا مع المعاني والفوائد لابد لنا من الوقوف أولا علي الفضائل العظيمة لهذه الأيام علَّ القلوب تسمو والهمم تعلو لإدراك قيمة هذا الشهر وذلك اليوم....

ويكفي بالمحرم فضلا أنه الشهر الوحيد الذي نسبه النبي ﷺ إلى الله كما ذكر ذلك الحافظ أبو الفضل العراقي رحمه الله، ونسبة الشئ إلى الله تدل علي شرفه ومقامه الرفيع كما نسب الله إليه البيت الحرام (بيت الله) وكما نسب ناقة صالح عليه السلام إلى نفسه (ناقة الله) ونسب الأنبياء كذلك ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ الآية..، والقرآن أيضا نسبه إلى نفسه فهو (كتاب الله).

و المحرم هو الشهر الوحيد الذي تكلم النبي عنه هذا اللفظ (صيام شهر الله المحرم) وفى رواية (شهر الله الذي تدعونه المحرم).

وقد ذهب جمع أهل العلم وعلي رأسهم الحسن البصري رحمه الله إلى أن المحرم أفضل الشهور قاطبةً بل أنه أفضل حتى من رمضان وقد بنى رأيه استنادا لهذا النسب الأشرف لله الأعز الأكرم، وكذلك لحديث رواه النسائي في سننه من حديث أبي ذر رضي الله عنه سأل فيه النبي أي الشهور أفضل فقال (شهر الله المحرم..).

وأيضا لأن صيام المحرم أفضل الصيام – وإن كان ذلك محمولا علي أنه أفضل الصيام بعد رمضان فلا شيء يعدل فضل الفريضة – إلا أن أفضلية الصيام فيها دلالة صريحة علي أفضلية الأيام.

والمحرم شهر حرام والله عز وجل فضل الأشهر الحرم علي غيرها بحرمة القتال مطلقا قبل الإسلام وبعده – إلا في حال تعدي أعداء الله أو عدم تفريقهم ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾.

واختص الله الأشهر الحرم بالنهي عن ظلم النفس فيهم والظلم منهي عنه علي العموم ويزداد النهي تغليظا في الأشهر الحرم ولذا قال ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾، وأكثرها حرمة المحرم ومن ذلك أشتُق أسمه وبلغت شدة حرمته عند العرب أن سموه «شهر الله الأصم» وقيل سمي المحرم لأن الجنة حرمت علي إبليس فيه (والله أعلم).

وقد كان السلف يعظمون هذا الشهر وبالذات أوله كما قال أبو عثمان النهدي رحمه الله «كانوا يعظمون ثلاث عشرات العشر الأخيرة من رمضان والعشر الأول من ذي الحجة والعشر الأول من المحرم».

ومن أعظم فضائل هذا الشهر وجود هذا اليوم العظيم من أيام الله فيه وهو اليوم العاشر منه المسمي بعاشوراء وفيه أحداث تاريخية جليلة غيرت وجه العالم وأظهر الله عز وجل فيها سننه الربانية ونصر عباده المؤمنين.

وقد ورد في فضل هذا اليوم وصيامه العديد من الأحاديث أشهرها حديث قدوم النبي علي المدينة حيث وجد اليهود –وفي رواية اليهود والنصارى– يعظمون هذا اليوم ويتخذونه عيدا فسألهم عن سبب ذلك فأخبروه أنه يوم ظهور موسي علي فرعون، صامه موسي شكرا لله عز وجل

فصامه النبي موافقة لسنة أخيه موسي عليه السلام وقال لئن عشت إلي قابل لأصومن التاسع وقال نحن أحق بموسي منهم وكذلك أخبر النبي أنه يوم من أيام الله كما في الصحيح «**عاشوراء يوم من أيام الله فمن شاء صامه ومن شاء تركه**» رواه مسلم

وقد ورد كذلك أنه يوم معلوم فضله عند من سبق من الأنبياء وورد في بعض الآثار (أن نوحاً عليه السلام كذلك قد صامه شكراً لله لأنه اليوم الذي أستوت فيه السفينة علي الجودي) كما في مسند الإمام أحمد.

وقد كان النبي يصومه حتى قبل الإسلام والراجح أنه صار أول صيام واجب بعد الإسلام قبل أن يفرض صيام رمضان ثم انتقل بعد ذلك من الوجوب إلي الاستحباب.

وقد رغب النبي في صيامه حتى بعد زوال الوجوب عنه وأخبر عن ثواب هائل لمن صامه بقوله «**أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله**» صحيح مسلم، وقال ابن عباس: (ما علمت أن رسول الله صام يوما يطلب فضله علي الأيام إلا هذا اليوم ولا شهرا إلا هذا الشهر -يعنى رمضان-) (خ/ م).

فكل ما سبق يدل علي خطورة هذا اليوم وعظم فضله وأحداثه التى تقشعر لهولها الأبدان حين تستعرضها القلوب وتمر تفاصيلها وأهوالها على العقول.

وكلام النبي عن هذا اليوم إذا تدبرناه يبعث داخل النفس مشاعر جياشة ويلفت الانتباه الي مبادئ وأفكار نحتاج أن نقف معها وقفات ووقفات ونخرج منها بأعظم الدروس التربوية والعقدية التى تنير الفكر وتستنهض الهمم وتملأ القلب بالعزة واليقين والتجرد وغير ذلك من المشاعر والمقامات الإيمانية التى نحن فى أمس الحاجة إليها اليوم

ووقفتنا الأولي مع كلمة النبي ﷺ حين علم سبب تعظيم اليهود لهذا اليوم واتخاذه عيدا فقال «**نحن أحق بموسي منكم**» وفى رواية «**نحن أولى بموسى منكم**».

وهاهنا قضية في غاية الأهمية وهي

الولاية لمن ولمن الأحقية؟... هلّا سألنا أنفسنا هذا السؤال وأجبنا بصدق ونحن مقبلون علي هذه الأيام الفاضلة وهذا اليوم المشهود الذي نصر الله فيه موسي عليه السلام الإسرائيلي (نسبة إلى جده) علي فرعون (المصري).

أظن أن المعني في وضوح الشمس..

هذه الكلمة البسيطة من النبي تؤصل عقيدة في غاية الخطورة وهي عقيدة الولاء والبراء.. الولاء دون النظر لجنس أو لعرق أو لون أو لغة.

الولاء المتوارى في زمن النعرات والصيحات والقوميات والأحزاب التي صدق فيها قول الملك جل وعلا ﴿ **فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ**

بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾

ينبغي علينا في هذه الذكري الجليلة أن نؤجج هذا المعني في قلوبنا وأن نتذكر هذه الروح الإيمانية التي جعلت سلمان الفارسي يقاتل بجوار صهيب الرومي والبون شاسع عميق بين دولتيهما.

- الروح التي جعلت النبي محمد العربي ينتصر لبلال الحبشي علي أخيه أبى ذر العربي كذلك ويقول له لما عيَّر أخاه بلونه «**إنك أمرؤ فيك جاهليه**».

- تلك الروح التي جعلت مصعب بن عمير يقول لأبي عزيز الأنصاري الذي أسر أخا لمصعب في غزوة بدر: أشدد عليه فإن له أماً لها مال علَّها أن تفديه منك، فقال أخوه: أتلك وصاتك بي يا أخي ؟.. فرد عليه مصعب قائلا إنه أخي دونك.

روح المغيرة بن شعبة وهو يضرب يد عمه عروة بن مسعود الثقفى لما امتدت لتمس شعرات من لحية النبى الشريفة.

بل روح أبى عبيدة بن الجراح لما قتل والده فى بدر

فلنسأل أنفسنا هذا السؤال الآن فى ذكرى هذا الدرس العقدى البليغ ولنجب علي السؤال بصدق

ولايتنا لمن؟؟

هل نجح أعداؤنا برسم الخط الحدودي المتقطع في قلوبنا بعد أن رسموه علي خرائطنا وفرقوا به أمتنا الي دويلات متناحرة أججت القوميات

والنعرات الجاهلية نيران الكراهيه بين أبنائها...، هل أنستنا حمى القومية الإمام البخاري (الروسي) والإمام مسلم (النيسابورى) والقائد صلاح الدين الأيوبى (الكردي) وبن حزم الأندلسى (الإسباني) والشيخ عبد الحميد بن باديس (البربري الجزائري) قائد ومسعر ثورة المليون شهيد (المسماة الآن فى إعلامنا الرياضى المغوار بثورة المليون لقيط) وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ألسنا نقرأ في الكتاب قول الله تبارك اسمه:

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى:

«إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ يعني: الذين سلكوا طريقه ومنهاجه فوحدوا الله مخلصين له الدين، وسنوا سننه، وشرعوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾. والذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم عليه السلام

ومثل ذلك قالت طائفة من السلف، منهم قتادة والربيع وابن عباس

والذي يتأمل سياق الآيات الكريمات يتبين أن الحق -سبحانه- قد تجاوز عن اعتبار اليهود والنصارى -صراحة وتلميحاً- في ولاية إبراهيم عليه السلام حيث قال:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال العلامة المفسر الفقيه أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطى الأندلسي في تفسيره:

«أخبر الله سبحانه في هذه الآية عن حقيقة أمر إبراهيم ؛ فنفى عنه اليهودية والنصرانية والإشراك، الذي هو عبادة الأوثان، ودخل في ذلك الإشراك الذي تتضمنه اليهودية والنصرانية، ودخل النفي على غاية الفصاحة ؛ نفي نفس الملل، وقرر الحال الحسنة»

إلى أن قال:

«ثم أخبر -تعالى- إخبارا مؤكدا أن أولى الناس بإبراهيم الخليل هم القوم الذين اتبعوه على ملة الحنيفية،، لأنه بعث بالحنيفيةالسمحة» وهنا يدخل من اتبع الحنيفية في الفترات، وهذا النبي محمد ومن آمنوا معه

وإبراهيم ليس عربيا واسمه اسم أعجمي ممنوع لذلك من الصرف ومع هذا يأمرنا الله بولايته وحبه.

أين نحن اليوم من هذه الولاية الإيمانية ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾.

هل نحن فعلا نستشعر هذا المعني الغالي معني ولاية المؤمنين

وأعظمهم الأنبياء فتهفو قلوبنا لعيسي حين يقود أمتنا مع المهدي فى آخر الزمان وتشتاق ألسننا للشهادة لنوح يوم القيامة أنه بلغ ما عليه وأدي أمانته، وهل نفرح يوم عاشوراء بنصر موسي النبي الذي هو من بني إسرائيل وبنجاة بني إسرائيل المستخلفين المؤمنين – في ذلك الوقت – من فرعون القائد المصري وجنده الأشاوس؟

و هل تتسابق من صدورنا زفرات الارتياح لهلاك هذا القائد الكافر مدعي الربوبية ؟.

أتمتلئ قلوبنا بالعزة واليقين حين نستعرض أمام أعيننا مشهد موسي عليه السلام (حفيد إسرائيل عليه السلام) وهو يقول في هذا اليوم ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ مع انقطاع الأسباب ليطيح هذا الحرف بكل مؤكدات المرجفين المنبطحين من بنى إسرائيل حين قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾.

هل نستهجن ونحقر كلمات الطاغوت مدعي الربوبية حين يقول في ذلك اليوم ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، ونبتسم تبسم المغضب حين نتذكر أنها هي هي نفس كلمات كل طاغية في كل زمان إلي يوم الدين وما كلمات بوش وأذنابه والعالم كله يد واحده أمام الإرهاب –عذرا– أقصد أمام الإسلام عن الأذهان ببعيد.!! .

❋ ما أجل هذا المعني وما أهم هذه الوقفة التي لا تنفك عن الوقفة التي بعدها والمعني الأصيل المرتبط بها وهو معني

البراء من أعداء الله حتي مع الموافقة الجزئية.وهذه هى وقفتنا الثانية

فالنبي بتجرد مطلق -سنقف معه أيضا وقفة قريبة – أقر اليهود علي المعني الكلى وفرح بنصر الله لأخيه موسي وشكر الله علي هذه النعمة بالصيام لكن بشرط مخالفة أصحاب الجحيم

فلم ينس النبي ﷺ عادته الشرعية بمخالفة اليهود والبراء منهم في كل ما يستطيع

فصيامه فى ذاته يعد مخالفة لليهود كما أورد ذلك بعض أهل العلم فقالوا إن العيد الأصل أنه لا يصام واليهود اتخذوه عيدا يحتفلون فيه كما نحتفل نحن بعيدينا وكما ورد في رواية لمسلم: «كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء يتخذونه عيداً، ويُلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم، فقال رسول الله ﷺ فصوموا أنتم».

قال الفوزان: وظاهر هذا أن من حكمة صومه مخالفة اليهود، وذلك بعدم اتخاذه عيداً، والاقتصار على صومه، لأن يوم العيد لا يصام، وهذا أوجه من مخالفة اليهود في يوم عاشوراء

وكذلك تظهر المخالفة فى قول النبى ﷺ «**لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع**»..

وقد ذهب جمهور العلماء الي أن كلمة النبي (لأصومن التاسع) علتها مخالفة اليهود وصرح بذلك بن عباس رضي الله تعالي عنهما واستدل بعض

أهل العلم برواية الإمام أحمد «**خالفوا اليهود فصوموا يوما قبله ويوما بعده**» ورواية الإمام البيهقي «**خالفوا اليهود فصوموا يوما قبله ويوما بعده**» وفيهما ضعف

فتأمل معي كيف آثر النبي مخالفة اليهود حتى في طاعة وفي أمر وافقهم علي أصله وليتدبر كل متشبه بأعدائه وكل زاعم أن الحرص علي المخالفة في الأمور الظاهرة وهو من قشور الدين وسفساف الأمور فلينظر شباب «الإيمو» و«الميتال» والشباب «الفانكي» و«النِيجر» حرص إمامهم عليه الصلاة والسلام علي المخالفة وإظهار الهوية الإسلامية وإبراز الشخصية المتفردة للمسلم حتي يُعرف عن غيره ولا يحدث التخليط المروع الموجود الآن الذي وصل إلي حد الموافقة المطلقة والإتباع الأعمى للغرب في كل شئ حتي في نجاسات أمعائهم كما صرح بذلك وزير خارجية أتاتورك الهالك! .

إن النبي طالما حث علي المخالفة في كل شئ من أول العبادات مرورا بالأخلاقيات إنتهاءا بالمظهر

وأحاديث المخالفة أكثر من أن نحصرها في هذا المقال فكم من مرة قال النبي خالفوا اليهود أو المجوس أو المشركين وإليك أمثلة

«**أعفوا اللحية وقصوا الشارب خالفوا المجوس/ المشركين**»،

«**نظفوا أفنيتكم فإن اليهود لا ينظفون أفنيتهم**»،

«**صلوا في نعالكم فإن اليهود لا يصلون في نعالهم / خالفوا اليهود فإنهم**

لا يصلون في نعالهم»

«وفروا عثانينكم وقصروا سبالكم خالفوا أهل الكتاب»

«يا معشر الأنصار حمروا وصفروا -أى اللحى- خالفوا أهل الكتاب»

إلى غير ذلك من الأحاديث وأغلبها كما يتبين في أمور ظاهرة قد يقول بعضهم أنها أمور فرعيه لا قيمة لها ولكن الحبيب عني بها وحرص علي مخالفتهم فيها حتي أستشعر اليهود ذلك فقالوا «ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه» رواه مسلم

فانظر يرعاك الله إلي ظهور المعني ليهود الأمس والتباسه علي كثير من مسلمى اليوم فكيف بهم وقد جمعت لهم هذه الأدلة علي المخالفه وعلي رأسها قوله «**من تشبه بقوم فهو منهم**»،

ومع ذلك لا يزال الجدال ولا يزال التجاهل والتعامي عن هذه الحقيقة الجلية حتي طمست الهوية الإسلامية وصار من يتمسك بها هو الذي يتهم بشذوذه عن النسق العام والعرف السائد من التشبه المطلق دون قيد أو شرط

بل وصار منهم من ينادي بوحدة الأديان وتعميم دين الإنسانية المستورد المزعوم

حتي صدق في كثير أبناء أمتنا قول الصادق المصدوق ﷺ «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه**» قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟

قال: «**فمن؟**» رواه البخارى

لماذا لا نجعل صيام تاسوعاء فرصة لإحياء هذه السنة أعنى سنة مخالفة أصحاب الجحيم وإظهار تفرد الهوية الإسلامية ولنعلم ذلك لأبنائنا ونذكر به إخواننا وآباءنا وكل من حولنا في هذا الموسم من مواسم المخالفة لليهود مع موافقة نبيهم بل نبينا موسى عليه السلام.

* الوقفة الثالثة وهي مع معني هو أيضاً من الأهمية بمكان عظيم وهو معني التجرد للحق مهما كان مصدره.

فهاهو النبي يقبل هذا الخبر من اليهود ويبني عليه عملاً يصير سنة الي قيام الساعة، فالحكمة ضالة المؤمن أنّي وجدها فهو أولي الناس بها ولا ينبغي للمسلم أن تعمي الخلافات أو العداوات عينيه عن التطلع للحق وقبوله حتي ولو كان من ألد أعدائه.

ولقد أظهر الله هذا المعني جلياً حين نزلت الآية بموافقة قول امرأة كافرة وهي بلقيس ملكة سبأ حين قالت ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فقال الله مصدقا لقولها ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

لا يعني هذا ألا يُنظر في المصدر ويتم اعتبار غالب حاله من صدق أو كذب، لكن إذا حدث التأكد من أن ما جاء به حق فلا مناص من قبوله والعمل بمقتضاه إن كان فيه خير العباد والبلاد.

إن سنة قراءة آية الكرسي قد أخذت من شيطان أطلع أبا هريرة رضى

الله عنه علي قيمة قراءتها وكيف أنه لا يقرب قارئها من الصباح شيطان حتي يمسي والعكس، فأقرَّ النبي هذا الخبر القادم من أشر مصدر وقال «**صدقك وهو كذوب**» فبين أن الأصل كذبه لكنه صدق هنا فلا مانع من الانتفاع بما جاء منه مادام حقا.

وقد أذن النبي بذلك فى الإنفتاح (المقيد) علي الآخر وعدم التقوقع علي النفس ورفض كل ما ليس من عندنا ولو كان فيه النفع، فقبل فكرة الخندق من سلمان الفارسي وهي فكرة جديدة بالكلية على العرب واختراع أجنبى محض قادم من بلاد تعد معادية وثنية ومع ذلك أخذ النبى الفكرة مادام النفع فيها للمسلمين ولم تعارض شرعا عندنا فتخندق النبي وأصحابه في غزوة الأحزاب وكان النصر من عند المولى جل وعلا.

ويوم الهجرة استعان النبي بخرِّيت حصيف يعرف طرق الحجاز ودروب الصحراء معرفة وافية فاستعمله النبي في رحلة الهجرة مع أنه لم يكن مسلما كما في الْبُخَارِيِّ عن عَائِشَةَ في حديثِ الهِجْرَةِ: (واسْتَأْجَرَ رسولُ اللهَّ ﷺ وأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً هو عَبْدُ اللهَّ بنُ أَرْقَطَ - وقيلَ: ابنُ أُرَيْقِطٍ - كانَ كافراً مِن بَنِي الدِّيْلِ هَادِياً خِرِّيتاً)

وقد ثبت كذلك عن النبى قوله «**حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج**» ولكن بشرط عدم التصديق المطلق فاستثني فى حديث آخر وقال «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»،

وهذه القاعدة العظيمة والمبدأ الجليل مبدأ التجرد للحق يحتاج إليه المسلمون اليوم بالذات المنغلقون منهم والرافضون لكل ما ليس من ثقافتنا من علوم وحضارات دون النظر إلي موافقتها للأصول الكلية للشرعية ودون اعتناء بالمصالح الآتية من ورائها طبعا مع رفض ما فيها من الزيغ والشطط.

فالدعوة إلى الانفتاح على الفكر الآخر إما أن يراد بها نتاج المعرفة الإنسانية فيما فيه منفعة دنيوية فهذا أمر مشترك بين سائر البشر يستفيد فيه بعضهم من بعض دون نكير. وفي تاريخنا الإسلامي المجيد صور ناصعة في الاستفادة مما لدى الآخر وتطويره وفق ضوابط الشريعة وأهدافها.

أما أن يُراد بالانفتاح على الفكر الآخر ما يشمله معنى الدين مثل نظرية المعرفة والتفسير الفكري للكون والإنسان والحياة والغيب ونحو ذلك ففي الإسلام غنية كافية وصادقة، فالإسلام تصور مستقل للوجود والحياة، تصور كامل ذو خصائص متميزة، ومن ثمّ ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها، بكل مقوماتها وارتباطاتها، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة. هذا التصور يخالف مخالفة أساسية سائر التصورات الجاهلية قديماً وحديثاً.

ولكن إذا جاء الغرب مثلا بمبادئ لا تتصادم مع شرعتنا وفيها من العدل والإنصاف وإحقاق الحق والأخذ علي يد الظالم قلنا لهم هذه بضاعتنا

ردت إلينا ولم نرفضها بالكلية وما موقف النبى من حلف الفضول عن الأذهان ببعيد فالحق دائما أحق أن يتبع مهما كان مصدره مادام حقا

والباطل أولي أن ينبذ ويلفظ وإن أتي من أحب الناس إلينا وقد روى فى الأثر عن نبي الله عيسى بن مريم أنه قال: «خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، كونوا نقاد الكلام»

أوردها السيوطي في الدر المنثور وابن عساكر في تاريخ دمشق والبرقي في المحاسن

وهذا هو مبدأ الإنصاف في دين أنزل الله آيات في كتابه يبرئ بها يهودي من ظلم وقع عليه من رجل ينتسب إلى الإسلام فقال ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

هذا ديننا وهذه عقيدتنا ونعلنها صريحة في عاشوراء: الحق أحب إلينا من كل شئ وإن كان مصدره أعدي أعدائنا.

الوقفة الرابعة كيف نشكر ؟؟

النبي ﷺ فرح بنصر الله لموسي عليه السلام وأراد أن يشكر الله علي هذه النعمة العظيمة وهذا النصر المبين فماذا فعل ؟

لقد صام هذا اليوم شكرا لله عز وجل على هذا النصر الذي غير مجري التاريخ وأظهر كلمته العليا وجعل كلمة الذين كفروا السفلي، ومن قبله صامه موسي عليه السلام وفي ذلك دلالة علي القاعدة القرآنية العظيمة

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

فربط الشكر بالعمل أمر متواتر في كتاب الله وسنة رسوله والمسلم إذا أصابته سراء فلا بد أن يشكر بلسانه وقلبه وجوارحه وهاهنا مثال واضح علي الشكر العملي بطاعة عظيمة وهي الصيام

وقد شكر النبي بالصيام في يوم الإثنين وحين سئل عن سبب صيامه فقال «**ذاك يوم ولدت فيه ويوم أُنزل عليا فيه**» رواه مسلم، فشكر علي نعمة الخلق ونعمة النبوة والرسالة فصام

وشكر بالقيام: فلما أطال من صلاة الليل وأكثر البكاء فقيل له تفعل ذلك وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال «**أفلا أكون عبدا شكورا**».

وشكر بالسجود فكان يسجد إذا أصابته نعمة وهو المسمى بسجود الشكر

وشكر بالذكر فكان يقول إذا أعجبه شئ «لبيك إن العيش عيش الأخرة»

وأمره الله بذلك آخر أيامه وعلمه والأمة كيف يكون الشكر عمليا فأنزل ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾

الوقفة الخامسة كيف يشكر؟؟

مع كل نفحة من نفحات الله لابد من تذكر هذا المعني

شكر الله لعبيده الطائعين

وشكر الله موضوع هائل لا نستطيع الوفاء بحقه في هذه السطور القليلة ولقد ذكرت طرفا من تجلياته في الفصل الثامن والثلاثين بعنوان «كثر خير الله وطاب» فيرجى مراجعته

إن كل ما ذكرنا من النعم والفضائل والنفحات لتنطبق على يوم عاشورات من حيث الأصل

أصل أن الله يشكر عباده

وإن معرفة ذلك لتملأ القلب بالفرح بالله والاعتزاز بهذا الدين ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾

ولكن ما يندى له الجبين بل وتشمئز منه الأنفس ذات الفطرة السليمة ما آل إليه حال طائفة تنتسب لهذا الدين من تحويل لهذا اليوم وفضائله إلى موسم نياحة وفرصة لتأجيج نيران الحقد الذى لا دين لهم بدونها.

ومع هؤلاء وقفتنا الأخيرة

مع أتباع دين الحقد واللعن والخرافة الرافضة المخابيل هؤلاء الذين حولوا الذكرى العطرة والشعيرة التى يُشكر بها الله على منّه وكرمه إلى فضيحة عالمية تجعل من أراد الدخول فى هذا الدين العظيم يتردد ألف مرة إن قيل له هذا هو الدين الحق

ولا يخفى على أحد فى زمن الإعلام المفتوح والفضائيات والإنترنت ما يفعله الرافضة من شقٍ للصدور ولطم للخدود وضرب للجيوب وجلد للظهور إلى غير ذلك من مظاهر الجاهلية التى يتفنن فيها الشيعة فى ذلك اليوم

يقول شيخ الإسلام بن تيمية فى مجموع الفتاوى «ولكن لا يحسن أبداً ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن على مقتل الحسين الذي يُلحَظُ التصنع والتكلف في أكثره، وقد كان أبوه عليٌّ أفضل منه وقُتل، ولم يتخذوا موته مأتماً، وقتل عثمان وعمر ومات أبو بكر ـ رضي الله عنهم ـ، وكلهم أفضل منه.. ومات سيد الخلق ﷺ، ولم يقع في يوم موته ما هو حاصل في مقتل الحسين. وليس اتخاذ المآتم من دين المسلمين أصلاً، بل هو أشبه بفعل أهل الجاهلية»

ويقول بن رجب رحمه الله فى لطائف المعارف «وأما اتخاذه مأتماً –أى عاشوراء– كما تفعله الرافضة؛ لأجل قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما فيه.. فهو من عمل من ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، ولم يأمر الله ولا رسوله باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتماً، فكيف بمن دونهم؟»

إن هذه الآلام؛ كآلام الحسين –رضي الله عنه– ليست إلا حلقة في سلسلة طويلة تهدف إلى توظيف الأحداث أو المخيلة؛ لاستدرار عواطف

الشعوب الطيبة، التي تكره الظلم، وتستنكف العدوان، لتربيها على صناعة ظلم جديد وعدوان آخر!

لم يكن الجوهر الحقيقي في مسيرات «اللطم» أو «التطبير» أو «العزاء» أو «السواد» هو صناعة البطل الذي تبلور في المخيلة الشعبية وكأنه هو المخلص أو الفادي أو المضحي، بل الجوهر الحقيقي لتلك المسيرات هو تكريس منظم، ومدروس بعناية لصناعة «العدو» أو «الخصم» أو «الآخر» أو «الناصبي» الظالم الشرير والخائن اللعين، كي يكتمل السيناريو، وُتكتب المسرحية بدقة، فتلتهب مشاعر الشيعة حزناً على «البطل الضحية» والذي ضحى بنفسه بالاختيار لأجلهم، لأجل شيعة الحسين، الذي تزعم روايات «صناع هولوكوست كربلاء» أنه وعد بالجنة كل من بكى عليه، وتألم لأجله، أو دعا بأن يكون من الجنود الذين ينتقمون من «الآخر» تحت راية المنتقم الدموي «مهديهم حبيس السرداب» الذي سيحيي قتلة الحسين وسيقتل العرب وسيصلب الصحابة وأبناء العرب!

لقد أخذت هذه الأساطير والقصص والرؤى تغذي العقل الشيعي بكراهية قاتل الحسين -رضي الله عنه- وظل الوجدان الشيعي يتغذى بالانتقام والكراهية كلما مر به طيف صورة الحسين رضى الله تعالى عنه وهو صريع في أرض كربلاء مقطوع الرأس، قتيل الأبناء!

إن أهل السنة بلا شك هم أولى الناس بالحزن على الحسين كيف لا وهو

سيد شباب أهل الجنة وريحانة المصطفى وابن الكاملة فاطمة رضى الله عنها وابن على بن أبى طالب الذى كان من النبى بمنزلة هارون من موسى عليه السلام.

لكن حزن أهل السنة لا يكون إلا بالسنة كما قال الحبيب عند موت ولده إبراهيم «**إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ولا نقول إلا ما يرضى ربنا**».

فنحن نحزن للظلم الذى وقع بالحسين لكن حزنا شرعيا قوامه الصبر والتجلد وزينته الدعاء له والصلاة عليه مع بقية الآل الأطهار الذين نتقرب إلى الله بحبهم لكن لا ينسينا حبنا للحسين وحزننا عليه سنة جده ونبذه لكل أمور الجاهلية ومنها تلك النياحة والمآتم قال رسول الله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت**» رواه مسلم

وهذه بعض الوقفات المهمة مع عاشوراءه تقبله منا بفضله ومنِّه إنه ولى ذلك والقادر عليه وما كان من صواب فى هذا الجهد فمن الله وحده وما كان من زلل أو خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله منه براء وحسبنا الله ونعم الوكيل.

٤٢. وما يلتفت

حين قال له فرعون: وفعلت فعلتك التي فعلت كان من الممكن لنبي الله موسى عليه السلام أن يرد بردود كثيرة ويبرر مقتل الرجل المصري

كان من الممكن أن يبين أنه قتل خطأ وأنه لم يكن يقصد قتله

كان من الممكن أن يوضح أن الرجل كان معتديا صائلا وأنه كان يدفعه

كان من الممكن أن يربط الأمر بجرائم فرعون الكثيرة في حق قوم موسى من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم

كان من الممكن أن يقول الكثير والكثير

لكنه لم يفعل

لم يستدرج إلى مراء التبرير ولم يضيع الوقت في متاهات الجدال

إنه صاحب رسالة جاء لمهمة ولديه هدف عليه أن يحققه

لقد تجاوز تشغيب فرعون باعتراف مباشر بسيط قائلا: فعلتها إذا وأنا من الضالين

نعم قد فعلت ولن أقف طويلا مع هذا الأمر أو أدفع عن نفسي شيئا قد حدث وقد نُفيت بسببه سنين عددا بعد أن تآمرتم لقتلي دون تحقيق أو تبين

فعلها وتاب عنها واستغفر في حينها ودفع الثمن من سنين غربته

وإبعاده

فعلها إذا ولم يبررها أو يزينها

لكنه عبر إلى الأهم

لم يضيع الوقت في غيابات التبريرات ليذهب مباشرة إلى هدفه الذي يعلو على الأشخاص والأحداث ويسمو على التفاصيل والزلات

إنه ليس من أهل الفراغ أو من أصحاب البطحات على الرؤوس

وإن لهؤلاء شأنا آخر واهتمامات أخرى..

لكنه حامل رسالة وصاحب قضية وهدف

وحامل الرسالة لا ينشغل إلا بهدفه ولا يهتم إلا برسالته ولا يعنى إلا بقضيته ولا ينفق وقته ويضيع حياته القصيرة في التبرير الذي يصل أحيانا إلى تزيين الخطأ وتحسينه لدرجة قد تؤدي في النهاية إلى ضياع الهدف الأصلي وطمس الثوابت وتواري الحق

وكثيرا ما يكون الطريق الأقصر هو اعتراف المرء بالخطأ والسعى لإصلاحه ثم الانتقال إلى الأهم والأنفع بدلا من تضييع الأعمار والثوابت في التبرير والتزيين والالتفات لهذا ولذاك

روى الإمام أحمد بسنده عن رجل من بني مالك بن كنانة قال: (رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخلّلها) يتخللها: يمشي خلال تجمّعات الناس في سوق ذي المجاز، (يقول: يا أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله

تفلحوا).

وأبو جهل يحثي عليه التراب، ويقول :لا يُغوينّكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى،

ما يلتفت إليه رسول الله ﷺ

تأمل هذه العبارة:

ما يلتفت إليه رسول الله ﷺ

هذا حال صحاب الرسالة ذى الأهداف السامية

همه في قضيته وجهده في رسالته وحدها ليس لديه ترف تضييع وقت أو جهد في غيرها

وما يتلفت



٤٣. ثم يأتي الفتح

خائفا يترقب

هكذا كان حاله حين خرج منها

لا يأمن على نفسه

مطارد مستهدف مهدور الدم

طريق طويل من مصر إلى أرض مدين وصحراء قاحلة عبرها وحده

ترى هل سيلحقون به ؟!

هل ستمضي مؤامرتهم لقتله والخلاص منه؟!

وكيف سيعيش هنا؟!

وأين المأوى ومصدر الرزق وهو الذي عاش حياته لا ينشغل بكل ذلك لقد كان في مكانة أمير في البلاط الملكي؟!

الآن هو طريد شريد بلا مأوى أو ملاذ

الأمور صارت معقدة والأسباب تكاد تكون مغلقة

ما هذا التجمع الذي يبدو من بعيد؟!

أخيرا سيشرب إذن

بعد تلك الرحلة الطويلة ها هو ماء مدين يتزاحم عليه الناس

لم تزل به قوة وعنفوان رغم الرحلة الشاقة التي دامت أياما وليال

سيستطيع أن يرتوي ويملأ سقاءه

لكن مهلا

ما لهاتين الفتاتين تذودان

ضعيفتان هما لا تستطيعان مزاحمة الرعاء الذين لم يرحموا ضعفهما

ما الذي يدفع بامرأتين لهذه المخاطرة وتلك المهمة القاسية

- ما خطبكما؟!

- لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير

إذن فهذا هو السر

الأمر اضطراري والمهمة القاسية لا مناص عنها

وإن المروءة خصلة متجذرة فيه والشهامة طبع لا يفارقه

ها هو يزاحم الرعاة الغلاظ الشداد ويتحمل تدافعهم رغم إرهاقه الشديد بعد عناء السفر

لم تمض دقائق إلا وقد عاد بسقاء الفتاتين ممتلئا عن آخره وانصرفت المرأة وأختها في حياء ممتن

الآن اجتمعت كل عوامل الإرهاق والنصب البدني جنبا إلى جنب مع هموم الإغلاقات التي تتكالب عليه

إغلاقات لم تتسرب إلى قلبه المترع بأمل في الله

ها هو يتولى إلى الظل في تسليم وافتقار وعلى لسانه مناجاة لا يملك غيرها في تلك الظروف القاسية

رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير

إلى غناك هو مفتقر

وإلى قوتك هو ضعيف

وإلى فضل جودك وسعة رحمتك هو راغب مضطر

فهل تراك تخيب ظنه

حاشاك حاشاك أن ترد سائلا مفتقرا

ها قد جاء الفرج وهلَّ الخير على قدم الواردين

ها قد جاء الفتح من عند خير الفاتحين

فتح لكل المغاليق السابقة

فتح في الأمن وفتح في الرزق وفتح في المأوى والسكن والمودة والرحمة

فتح تحدوه خطوات حيية جاءت تحمل البشرى

- إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا

فتح لمغلاق الرزق الآني هو إذن ذلك الذي تبشر به تلك الفتاة الحيية

- لا تخف نجوت من القوم الظالمين

فتح لمغلاق الأمن يتبدى من كلمات الرجل الصالح والد الفتاتين وقد سمع منه القصص وأدرك ما ألم به من الظلم فأمنه وطمأنه

- إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين

لن تعود وحيدا يا موسى فقد جاء فتح المودة والرحمة والسكنى لزوج حيية أكرمك الله بها وفتح لك

- على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك

إنه عقد إذا

وظيفة مستقرة وعمل ثابت لسنوات تحددها أنت يا موسى

أي فتح هذا وأي فضل

منذ ساعات كنت خائفا تترقب تأوي إلى الظل مفتقرا

الآن قد أجرت وزوجت ووظفت وأمنت ونجوت

وفتح لك

لأنه الفتاح

الفتاح الذي يفتح مهما بلغت المغاليق ويفرج مهما ضاقت واستحكمت حلقاتها

يفتح حتى لو ظن كل الخلق أنه لا يفتح أبدا

حتى لو بلغ الاستيئاس مبلغه وظن الرسل أنهم قد كذبوا وتقطعت بهم الأسباب فإنه يفتح

إنها الصفة التي تتجلى في تلك النهايات السعيدة

نعم

مع الفتاح النهاية سعيدة في الدنيا أو في الآخرة

المهم أن يعاملك بالفتح

فإذا فتح كان فتحه مبينا عظيما

لقد بلغ الحزن بيعقوب عليه السلام مبلغه وابيضت عيناه منه فهو كظيم

ثم جاء الفتح

واجتمع الشتيتان ورفعه ولده يوسف على العرش وظهر تأويل الرؤيا بالحق

لأنه لم ييأس من روح الله

وعلم أنه يفتح

وفتح

ولقد بلغ الكرب بأم المؤمنين عائشة مبلغه حتى أنها نسيت من شدته اسم نبي الله يعقوب وقالت لا أقول إلا كما قال أبو يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

إنها الصديقة الحصان الرزان العفيفة التي لا تزن بريبة ورغم ذلك رميت في عرضها وابتليت هي وخير الخلق زوجها وصاحبه أبوها ووليها أشد البلاء لشهر كامل

ثم جاء الفتح وظهرت البراءة بقرآن يتلى إلى يوم الدين

وإن الإغلاق كان ماديا حقيقيا مع أصحاب الصخرة الذين أغلق عليهم الغار

صخرة تسقط من جبل وما أدراك بصخور تهوي في انهيار جبلي

ربما لا تفتح أبدا إلا بعد سنوات في انهيار جبلي آخر يجد الناس بعده ثلاثة هياكل عظمية قضوا نحبهم خلف تلك الصخرة

لكنه فتح

لقد أحسنوا الظن بالفتاح ودعوه بصالح أعمالهم وأكثرها إخلاصا وتجردا فكانت الإجابة وكان الفتح

وانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون

﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾

ثلاث كلمات دعا بهن نوح عليه السلام في ذلك الموطن

مئات السنين والقلوب مغلقة والآذان تسدها الأصابع والأعين عليها غشاوة وحجاب

الوضع صار مغلقا

ونبي الله ووليه مغلوب!

فانتصِر

هكذا طلب

وبهذا دعا

فتحت الحجب لهذا الدعاء فكانت أول كلمة بعده

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾

وانتصَر

وفتح الله بينه وبين قومه بالحق

وهو خير الفاتحين

وهكذا حدث مع شعيب عليه السلام

تعقدت الأمور وازداد العنت وبلغ الفجور مبلغه بقومه حتى قرروا أن يخرجوه من قريتهم هو والذين آمنوا معه أو يكرهونهم على العودة إلى ملتهم

أي ظلم هذا؟!

وأي استكبار وعلو قد وصلوا إلى دركاته

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾

صمد شعيب عليه السلام ولم ينكسر لظلمهم ولم يرضخ لبغيهم وقال:

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ ﴾

لكن الإغلاق قد بلغ أشده والعنت قد وصل إلى منتهاه والقوم يأبون

إلا استضعافه والبطش به

هنا يأتي الدعاء الفاصل ويرغب المظلوم في فتح مولاه

هنا دعا شعيب

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾

فجاءه الفتح

وعامله الله باسمه الفتاح

وفتح بينه وبين قومه بالحق

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

وإن كل نصر أو تمكين أو تفريج نالته تلك الأمة أو الأمم السابقة إنما كان بفتح من الفتاح

فما الفرج إلا من عنده وما فتح مغاليق الدنيا إلا بيده

ولــرب نازلــةٍ يــضيق لهــا الفتــى ذرعــاً وعنــد الله منهــا المخــرج

ضــاقت فلــما اســتحكمت حلقاتهــا فرجــت وكنــت أظنهــا لا تفــرج

وسيفتحُ الله باباً كنت تحسبهُ من شدة اليأس لم يُخلق بمفتاحِ

وكذلك في سائر النهايات السعيدة

كربات وأحزان وتضييقات وإغلاقات

ثم يأتي الفتح من خير الفاتحين الفتاح العليم

إنه الاسم الذي يبعث الأمل في النفوس المحبطة والصفة التي تبث البهجة في القلوب المكلومة الحزينة

ألا فادعوه باسمه الفتاح

واستفتحوا



٤٤. بين ربوع معرفته وحدائق معاملته

أم تلقى وليدها فى بحر متلاطم الأمواج!!

رجل يرحب بالسجن والأسر إن كان فى غير معصية الله!!

شيخ هرم واهن العظم مشتعل الرأس يطلب الذرية!!

والد يمسك سكينا ويقدم على ذبح ولده والولد يرحب!!

شاب يقف وحده فى مواجهة أعتى دولة على الأرض ويقول كيدونى جميعا ثم لا تنظرون!!

رجل مسن يبنى سفينة فى عرض الصحراء دون أن يأبه بسخرية الساخرين!!

أوتعجب لفعلهم؟!

أفتستغرب لقولهم؟!

أتتساءل عن أحوالهم؟!

أتتوق لمآلهم وتستفسر عن سبيلهم؟!

إنهم ببساطة أناس قد عرفوا ربهم.....

لكنها ليست معرفة سطحية أو عادية

ليست مجرد علم نظرى جامد

إنها حياة كاملة متكاملة مع الله

حياة ازدهرت بها واحات قلوبهم وأينعت فيها ثمرات يقينهم ودنت عليها ظلال توكلهم فكانت تلك الأعاجيب وكان ربهم بهم حفيا وما كان أحدهم بدعائه شقيا

وكذلك معرفة الله إذا خالطت بشاشتها القلوب وعاينت بهجتها النفوس ولاطفت نسماتها الأرواح

فمن عرف الله حق المعرفة وأحصى أسماءه وصفاته ومننه وآلاءه وأحبه وامتلأت نفسه بتعظيمه وإجلاله فإن قلبه يفيض بتلك المعرفة والمحبة والتعظيم

وإن المحب إذا سُئل عن حبيبه فإنه يبدع فى الكلام عنه حتى وإن كان اللسان معقودا والبيان كليلا فإن محبته تظهر وصدقه يصل ورسالته تجد طريقها إلى القلوب وما كان من القلب وصل إلى القلب وليست النائحة الثكلى أبدا كتلك المستأجرة

وإن أقواما عرفوا أعراضا من الدنيا وزينتها وأحبوها فأجادوا الكلام عنها وبرعوا في تعريف الخلائق بها وعظموا شأنها رغم هوان قدرها

فما بالك بمن عرف الله وأحبه كيف يكون شأنه وكيف يكتم خبره ولا يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟!

ومن عرف ربه فإنه يتقلب فى حدائق الاطمئنان بذكره ﴿أَلَا بِذِكْرِ

ﭐللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ ويستظل بوارف أشجار التوكل عليه وهو يردد ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ وهو يتنعم بنسيم اليقين فيما عنده ويثق بـ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ وإنه على علمه هذا يخشاه ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ ويوجل لذكره فهو ممن قيل فيهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ لكنه ما إن يتذكر واسع فضله وجنات جوده وغيث إحسانه حتى يسارع إلى رحابه ويعجل إلى خلوة به مرددا قول الكليم عليه السلام ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾

لكن البداية أن يعرف

ومن ذاق عرف

ومن عرف اغترف.

يقول ابن القيم رحمه الله: (ولا سعادة للعباد ولا صلاح لهم، ولا نعيم إلا بأن يعرفوا ربهم ويكون وحده غاية مطلوبهم، والتعرف إليه قرة عيونهم، ومتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالا من الأنعام، وكانت الأنعام أطيب عيشا منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل)

وما من قربى ولا مقام من مقامات الدين إلا وينال كمالها بمعرفة الله والعلم بأسمائه وصفاته

فمن عرف الرقيب الحسيب العليم الخبير حق المعرفة أدرك مقام

الإحسان

ومن علم معنى الجبار القهار العزيز ذى انتقام رزق الخشية والخوف والإخبات والوجل

ومن تشرب قلبه معانى الرحمة والمودة لم يخل ذلك القلب من رجاء ومحبة

ومن علم أنه يقبل التوبة عن عباده ويغفر السيئات آب وأناب وتاب إليه واستغفره

ومن سمع أنه قريب يجيب دعوة الداع وضراعة المضطر لم يعجز أن يرفع إليه يديه ويسأله من جوده وفضله

ومن عرف غناه افتقر إليه واستغنى به وطلب منه وحده المثوبة واستوى عنده مدح الناس وذمهم

ومن علم بقوته اعتمد وتوكل عليه

ومن ذكر جماله اشتاق للذة النظر إليه

وإن مقام الشوق إلى لقائه لا يتأتى إلا لمن عرفه حق المعرفة فلا يعقل أن يشتاق المرء وتهفو نفسه للقاء من لا يعرف عنه شيئا

أما من يعرف فإنه يتوق ومن ثم يسارع وقلبه يصيح بقول الكليم عليه السلام ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

يقول ابن القيم رحمه الله: من عرف الله اشتاق إليه وإذا كانت المعرفة لا

نهاية لها، فشوق العارف لا نهاية له

وكما أن محبة الله مقترنة بمعرفته ملازمة لها فإن الغيرة لا تنفك عن المحبة والمحب يغار وغيرته تلك علامة حبه وبذلك نفهم قول رسول الله ﷺ فى شأن مشاعر المؤمن تجاه حرمات الله: «**إن المؤمن يغار والله أشد غيرة**» وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم عليه

فهو يحب عبده ويغار أن يلقى عبده بنفسه فى حبائل عدوه

ومن علم أنه الواحد الأحد الصمد أخلص وجهته له وحده فلا تأوي النفس إلا إليه ولا ترغب إلا فيه ولا ترهب إلا إياه ولا يكاد القلب يشهد إلا آثار أفعاله وتجليات أسمائه وصفاته

ولعل ذلك الدعاء الجامع للنبى ﷺ حين تعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته وبه منه يعد تجسيدا واقعيا لتلك الحالة من توحيد الوجهة بشكل مطلق

وكأنى به صلوات ربي وسلامه عليه لا يرى فى الكون سوى معاملة معه وعلاقة به أورثت بالقلب واللسان كمال الالتجاء وصدق التعلق وتمام الرغبة والرهبة تلاها ذلكم الثناء المهيب «**لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»

فإن من عرف الله حق المعرفة ينظر إلى كل ما يمر به من أمور الدنيا والدين من خلال منظور المعاملة معه

فالفضل والنعماء منه وإليه

والابتلاء اختبار عليه أن يحسن الأداء فيه ليرى الله منه خيرا

والأمر والنهي والحلال والحرام هى امتحانات شرعية عملية عليه أن يجتازها

والعارف لا ينسى أو يغفل عن معاملة الله له فى أى مقام

أنظر إلى زكريا عليه السلام حين طلب الذرية وقد وهن العظم واشتعل الرأس شيبا وعقمت المرأة إن ذلك لم يكن بمعزل عن معاملة تعودها زكريا فقال مسترجعا إياها ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

وإبراهيم عليه السلام حين جادل أباه وقومه لم ينس المعاملة الربانية فقال مذكرا بها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ وحين قرر اعتزالهم وهجرانهم لم يغفل عن أمله فيمن كان به حفيا فقال ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾

وكذلك فعلت امرأته حين علمت أن من أمره بتركها ووليدها فى الصحراء هو الله جل وعلا فقالت «**إذا لا يضيعنا**»

وما أحسن قول تلك الفتاة العارفة ابنة حاتم الأصم حين رأت رفع البلاء عنهم وغناهم بعد فاقة أصابتهم لمجرد أن أميرا من الأمراء قد مر عليهم فأحسن إليهم وأجزل لهم العطايا

فقالت باكية: «مخلوق نظر إلينا فاستغنينا وشكرنا، فكيف لو نظر إلينا الخالق»

وهكذا يتقلب من عرف ربه في رحاب المعاملة معه ويتجول بين ربوع ذكره في كل موقف ولا ينشغل إلا بالتماس مرضاته على كل حال

إن معرفة الله إذا استقرت فى قلب عبد فإنها تهز -بل تزلزل- كل تصوراته الخاطئة ونظراته القاصرة فتسقط كافة أوثان النفس لتخر متهدمة على أنقاض سوء الظن والتعلق بالخلق

وكما رجف المنبر برسول الله ﷺ حينما تحدث عن الملك حتى قالوا ليخرن به فإن قلب المؤمن وحياته وتصوراته ونظراته للأمور ترجف وتهتز وتنقلب رأسا على عقب حين يعرف الله حق المعرفة فيرى الأمور بقيمتها الحقيقية ويزن الدنيا وما عليها بميزان المعرفة

معرفة الله

وهذا ما حدث حين عرف السحرة مولاهم الحق فتكشفت لهم تلك القيمة الحقيقية للأشياء وبدت لهم المعايير الصحيحة فما ترددوا فى الاختيار بين الدنيا وما عند الله وقالوا لمن هددهم ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

وهذه من أزكى ثمرات المعرفة وأشهى قطوف العلم بالله

أن يستقيم الميزان وتبدو الدنيا بزينتها رخيصة إن وضعت فى مواجهة مع إرضاء الله وما عنده

حينئذ يرتفع الشعار عاليا خفاقا نقيا رقراقا يردده العارفون: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ

وَأَبْقَىٰٓ ﴾

ويُنظر عندها إلى كل تهديد وتخويف بمنطق ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

فمن عرف الله حق المعرفة سهل عليه التعامل مع الخلق وأضحت صلتهم يسيرة والصبر على أذاهم هينا فإنه يتذكر حين يعاملهم ويحسن إليهم أنه لا يكافئهم فليس الواصل بالمكافىء ولكنه يعامل ربه وربهم ويتعبد إليه بالإحسان إليهم والصبر على أذاهم وحينئذ يكون حرصه الأوحد على أن يُرى الله منه خيرا في كل حال

والقلب الذى تشرب العلم بالله ومعرفة أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه لا يحتمل أن يمكث طويلا تحت وطأة المعاصى أو يطول عليه الأمد فى رجس الخطيئة فما أن يُذَكَّر بمولاه حتى يسارع للاستغفار والتوبة والأوبة إلى رحابه لأنه يعلم جيدا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو فيكون ممن قال الله فيهم: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾

و لربما بلغ درجة أعلى من ذلك كما حدث مع يوسف عليه السلام إذ يقول ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

فحسن أن يتمنى المرء ألا يعصى الله

وأن يبغض المعصية وينفر قلبه منها فذاك أحسن

وأن يتحمل الأذى ويصبر عليه لئلا يقع فى الفاحشة فتلك درجة عالية رفيعة

لكن أن يصل به تعظيمه لحرمات مولاه لأن يكون الأذى والعذاب الدنيوى أحب إلى قلبه من المعصية فهذا مقام من تشرب قلبه بمعرفة ربه

معرفة أسفرت عن محبة صادقة وتعظيم خالص يجعله لا يطيق إغضابه والتعدى على حرماته

معرفة جعلت أى مكان لا يعصى فيه الله أهون عليه من محل المعصية ولو كان قعر سجن بارد مظلم

ببساطة

لو عرفته حق المعرفة

لأحببته

ولامتلأ قلبك بالشوق إليه

ولامتلأت نفسك بخشيته وإجلاله وتعظيم أمره

ولتاق فؤادك إلى قربه والأنس بلقائه

ولزهدت روحك فى كل شىء إلا قربه

ولهان عليك كل شىء فى سبيل إرضائه

فقط لو..... عرفته

المحزن أنك تجد كثيرا من الناس يعرفون عن كل شىء شيئا لكن إذا جاء الأمر لذلك النوع من المعرفة تجد المأساة

لو فتح موضوع عن السياسة تجده ينطلق

ينقلب الكلام عن كرة القدم تجده وكأنه المدرب العالمي والحكم الدولي والخبير الرياضي فتنتقل به إلى السيارات وموديلاتها فلا يمانع

فى الفن فهامة وفى الطب علامة وفى الموضة أستاذ وأستاذة

لكن لو احتاج لأن يتكلم عن ربه ولو لدقائق أو طُلب منه أن يعرف أحدا على مولاه فلربما لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة

ببساطة لأنه عايش كل ما سبق

فعرفه وفهم عنه

وصدق من قال المعايشة أساس الفهم

إن التعرف على الله مهمة حياة وإن كل لحظة تنفقها من عمرك لتتعلم عن ربك وتتعرف عليه بأسمائه وصفاته لهى لحظة غالية نفيسة لن تكون حياتك بعدها مثل حياتك قبلها

وإن أعظم ما تتعرف به على ربك هو كلامه ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾

هل جربت يوما أن تقرأ كتاب ربك بهذه النية وبذلك الهدف

إن أعظم ما تتعرف به على الله جل وعلا كلامه هو عن نفسه ثم كلام عباده المقربين العارفين به عنه ثم كتابه المنظور من حولك والذى تتجلى فيه

آثار قدرته ورحمته وسائر صفات الجلال والجمال والكمال التى يتصف بها ثم من خلال معاملته لك أنت شخصيا

فمن خلال كلامه عن نفسه في كتابه المنزل وأحاديثه القدسية تستطيع أن تتعرف على أسمائه وصفاته

والقرآن الكريم هو أعظم كتاب اعتقاد موجود بين أيدينا فلا تكاد تخلو سورة أو آية فيه من ذكر لله أو حديث عن اسم من أسمائه أوصفة من صفاته ولا يوجد مخلوق يحيط علما بالله جل وعلا لذا فأعظم ما تستمد منه معرفتك هو كلامه عن نفسه

وأيضا تتعرف عليه من خلال كلام نبيه ﷺ وأحاديثه الصحيحة التى يكلمك فيها عن الله جل شأنه ويثني عليه ويحمده ويقدسه

وتستطيع أن تتعرف على الله كذلك من خلال كلام العلماء العارفين الذين أفنوا أعمارهم في التعرف على الله والتعلم عنه

وأيضا من خلال التدبر في الكون والنظر في ملكوت السماوات والأرض والتأمل في آثار رحمة الله في الخلق حيث تستطيع أن ترى تجليات الصفات في هذا الكون السرمدي البديع

وكذلك من خلال معاملته لك في سائر حياتك ونعمه الظاهرة والباطنة التي حين تتذكرها وتتأملها تتعرف عليه تعرفا عمليا

أكرر

إن التعرف على الله مهمة حياة وليست فقط كتاب يقرأ أو مسألة تدرس ولكنها رحلة تحتاج إلى إرادة حقيقية وصادقة من المرء لكي يسلك سبيلها وينال تلك المعرفة

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: أي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وماله بعد الوصول إليه

وإن نقص العلم بالله قد يورث سوء الظن به

وفساد الظن به مهلك ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

وإن أقواما لم يعرفوه حق المعرفة فظنوا به غير الحق ظن الجاهلية وما قدروه حق قدره ولا ارتجوا له وقارا فكان عاقبة أمرهم خسرانا فى الدنيا بأن شُغلوا بأنفسهم وحسبوا كل صيحة عليهم وفى الآخرة ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾

يقول ابن القيم: فالعلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح، فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته

وأشد الجهالة هى الجهالة بمقام الله وهى إن وُجدت وُجد معها العصيان والاجتراء على الحرمات وقد يعذر المسلم بجهله لحكم خفى عنه أو نقص علمه بحرمة حرام أو منكر منهى عنه

لكن الجهل بالمقام الإلهى أمر مختلف فعنه شرعت التوبة كما فى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ وأمر بالتعجيل بها فى قوله ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾

وتمام تلك التوبة يكون بإصلاح ذلك الجهل بالله والتعلم عنه وحسن معرفته وتعظيم مقامه فى القلب وسنحاول إن شاء الله أن بسهم في ذلك من خلال كتابنا القادم عن أسماء الله وصفاته والذي تعتبر هذا الفصل مقدمة له وهو معنون بـ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ نتعلم من خلاله عن الله ونطوف بين ربوع معرفته وحدائق معاملته

لعل من يفعل ذلك يجد شيئا من نسمات تلك المعرفة فينال بذلك جنة الدنيا والآخرة وما ذلك على الله بعزيز

❊ ❊ ❊

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة